الإيقاع القرآني

أثره الفني وإعجازه البلاغي

دكتور

أسامة شكري الجميل العدوي

دكتوراه البلاغة والنقد

١٤٣٤ هـ -٢٠١٣ م

المقدمة

الحمد لله مُوجِبُ الحمد بنعمه ، مُستحقه بتوفيقه ورشـــده ، لا يبلـــغ مداه إطناب ولا يستغرقه إسهاب ، غاية الرجاء ، ومُسبغ النعماء ، مُقيل كل عثرة ، ومنتهي كل رغبة ، وأصلي وأسلم علي خيرتـــه مـــن خلقـــه وصفوته من رسله .

وبعد

فما زالت المفردة القرآنية في حاجة ماسة إلي من يفتق الأصـــداف عن كنوزها ، ويستخرج الدّر من بحارها ، ولا أخال ذلـــك إلا بـــالتعريج علي الدراسات التطبيقية التي تستنفر الهمم نحـــو الارتيـــاد والكشـــف والمغامرة الدائبة في متون القرآن الكريم بغية الوصـــول إلـــي الفهـــم الأعمق لأساليب التصوير وأنماط التشكيل التي تبعث علـــي مزيـــد مـــن الإيحاء والتخييل ، وتطمح هذه الدراسة في إرساء أساس نقدي يســـتمد من التراث البلاغي أصالته وقوته ، ومن النقد الحديث جدته وروعتـــه ، بعد أن لقيت صدوداً من أبنائها ، ووصفوها بـــالجمود والقصـــور عـــن مواكبة النظريات النقدية الحديثة ، وحصروها فـــي المتـــون والشـــروح القديمة ، ومن ثمَّ تسعي هذه الدراسة جاهدة لتثبت بالـــدليل والبرهـــان رحابة موروثنا البلاغي وقدرته على استيعاب النظرية النقدية الحديثة ، فأخذت منها ما يؤصل لرؤية جديدة تستمد من البلاغة العربية أصـــالتها وقوتها ، ومـــن النقد الحديث جدّته وطرافته ، فلم تقف حـــائلاً بينهمـــا

وإنما سعت إلي تدعيم الروابط والصلات التي تحدّ من القطيعة والتنـــافر بينهما ، وحاولتْ التقريب بين الظواهر اللغوية القديمة ، وما يستجد من المناهج النقدية الحديثة ؛ لتؤكد أن النظرية النقدية العربية لا تتنكر لمـــا لدى غيرها من الأمم الأخرى ما دام صالحاً لإضافة فكر جديـــد ومـــنهج فريد يضاف إلي رصيدها الثقافي وإرثها النقدي ، فسعتْ إلـــي إرســـاء دعائم نقدية وصور بلاغية تتخذ من اللفـــظ القرآنـــي – الـــذي امتـــدت أغصانه فناً بديعاً ، وأينعت ثماره أدباً رفيعاً – مهاداً فنياً تنطلـــق منـــه هذه الدراسة .

والإيقاع واحد من الدروس النقدية التي بلغت في التعبيـــر القرآنـــي منزلة سامية ودرجة عالية في مستويات أدائه الفني ونســـقه البيـــاني ، فلم يتوقف دوره على الجمال الصوتي والنغم الإيقـــاعي ، وإنمـــا كـــان ضرورة فنية وروعة إبداعية من ضرورات النص التشـــريعي والتنزيـــل السماوي ، حتى يجعل النفوس له مصـــروفة ، والآذان بـــه مشـــغوفة ، وتبدو فاعلية الإيقاع في القرآن الكريم في تعدد روافده الصوتية وأنغامه الجرسية التي تثيرها وحداته اللغوية وتراكيبـــه الأســـلوبية ، وتتـــواتر جميعها علي توفير مساحة من التقابل الصوتيّ ، والتناسق الفنيّ ، الذي ينبعث من تآلف الأصوات في مفرداتها ، وتناسق الكلمات في جملهـــا ، وتقارب الأوزان في مبانيها ، وتناسب الوجوه في معانيها ، إلـــي غيـــر

ذلك من الصور التي تعمل علي توفير ترديد إيقاعيّ ونغم جرسيّ يسهم في التناسق الإبداعي للنصّ القرآني .

ولست أدعي في هذه الدراسة العصمة من الزلل ، أو التنزه عن الخطأ والخلل ، فالكمال لله وحده ، وإني لمؤمن بأنه مهما بذل الباحث من جهد وتكبد من عناء ، فلن يكون بمنجاة من الزلل والقصور ، أو بمأمن من الكبوة والعثار ، وإن مشي في جدد من الأرض ؛ لأن هذا طبيعة الإنسان منذ أن وجد وكان .

وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ هود آية(٨٨)

مفهوم الإيقاع

جاء فـــي لسان العرب: " الإيقاع من إيقاع اللحن والغناء ، وهو أن يوقع الألحان ويبيِّنها ، وسمَّى الخليل رحمه الله كتاباً من كتبه في ذلك المعنى كتاب الإيقاع "[1] ، وعند بن سيدة " الإيقاع حركات متساوية الأدوار لها عودات متوالية ، واللحن صوت ينتقل من نغمة إلى نغمة أشد أو أحط "[2]

والمتأمل في هذين التعريفين يجـــد علاقة وطيدة بين الإيقاع واللحن ، لاسيما تعريف ابن منظور ، أما صاحب المخصص فيفصل بينهما ، لكنه فصـــل للخاص عن العام ؛ فالإيقاع عنده أعمّ والوزن أخصّ ، وهو في مفهومه مجموعة من الألحان المتساوية الأدوار نتيجة الانتقال بين أجزاء الوحدات الكبرى للإيقاع ، أما اللحن : فهو عنده صوت ناتج عن الانتقال من نغمة إلى نغمة أخرى ، وهو بهذا يلتقي مع بن منظور الذي يربط الإيقاع في تعريفه باللحن والغناء .

---

١١) لسان العرب لابن منظور ، الجزء الثامن ، ص ٤٠٨ ، دار صادر بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٠م ، وتاج العروس من جواهر القاموس ، للزبيدي ، تحقيق : مصطفى حجازي ، الجزء الثاني والعشرون ، ص ٣٥٩ ، وزارة الإعلام الكويت ١٩٨٥م.

(٢) المخصص ، لابن سيدة ، المجلد الرابع ، ص ١٠، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، بدون .

والإيقاع في مفهومه الفنيّ وإطاره النقديّ يبحث عن الجمالية اللفظية لهيكلية النص اللغوي ، وما يعتري جنسه البنيوي من انسجام وقعيّ وتناغم جرسيّ يوائم بموجبه بين إيحاءات اللفظ ومقتضيات المعنى ، ومن ثمَّ التحكم في انتقاء المفردات واصطفائها ، وتوقيع العبارات في تشكيلها ، وشحنها بطاقة تعبيرية وظلال تصويرية تؤثر في المشاعر الحسية التي تنبعث من تآلف الحروف في مفرداتها، وتناسق الكلمات في جملها .

إن الإيقاع الفنيّ : وحدات جرسية ومقاطع لغوية تأخذ حيزاً زمنياً عبر مسافات منتظمة وحركات متدفقة ، تحدث أثراً نفسياً وأنساً روحياً ، تسمو إليه الآمال ، وترنو إلي غايته الأبصار ، تستشرف وحيه النابس ، وتعتصم بحبله الهامس ، وهو من المفاهيم النقدية التي وردت تحت مسميات مختلفة ومجالات متنوعة ، فهو يتقارب حتى يعادل الوزن في الشعر بكل ما يحويه من مكونات جرسيّة وتفعيلات عروضية ، ثم يتباعد حتى يستوعب شتي الظواهر الطبيعية ومختلف المجالات الحياتية التي يعايشها المرء في حياته اليومية ، كإيقاع القلب والنفس ، وإيقاع الليل والنهار ، والطقس والأمطار ، والبرق والرعد ، وغيرها من فنون الرقص والغناء ، والرسم والنحت . وقد خلت معاجم البلاغة العربية من تقنين هذا المصطلح ووضع حدٍّ لمفهومه ، وإن تواترت الآراء البلاغية واللمحات النقدية علي ما يحمله المصطلح من مدلول في النقد الحديث ،

فاستعاضت عنه بالوزن ، والتكرار ، والترصيع ، والجناس ، والسجع ، والطباق ، والتقديم والتأخير إلي غير ذلك من المصطلحات التي تتعاورها المفردات والجمل ، أما في النقد الحديث فمصطلح الإيقاع ترجمة للمصطلح الأوربي rhythm في الفرنسية وهو مشتق من rhuthmos في اليونانية ، ويعني الجريان والتدفق ، والتواتر بين حالتي الصوت والصمت أو النور والظلام ، وهو من أبرز إشكاليات الحداثة الشعرية في النقد الحديث التي تُعنى بتموج الصوت وتدفق الكلام علي نسق محدد وترتيب منظم ، وهو ظاهرة صوتية تتوزع بها بنيات لغوية عبر القول ، فيسهم ترديدها في خلق جوٍّ شعوريّ وإحساس وجدانيّ معين ، إنه " وحدة النغمة التي تتكرر علي نحو ما في الكلام أو في البيت ، أي توالي الحركات والسكنات علي نحو منتظم في فقرتين أو أكثر من فِقَرِ الكلام ، أو في أبيات القصيدة ، وقد يتوافر الإيقاع في النثر ، مثلاً فيما أسماه قدامة بن جعفر:" الترصيع" ومثاله : " حتى عاد تعريضك تصريحاً ، وصار تمريضك تصحيحاً " ، وقد يبلغ الإيقاع في النثر درجة يقرب بها كل القرب من الشعر، أما الإيقاع في الشعر فتمثله التفعيلة في البحر العربي ". [٣]

---

(٣) النقد الأدبي الحديث ، د: محمد غنيمي هلال ، ص٤٣٥ ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، الفجالة القاهرة ١٩٧٩م .

وهو بنية بلاغية ووحدة لغوية تُعنى بالعمل علي توفير سمة صوتية تجعل الآذان لها مصروفة ، والقلوب بها مشغوفة ، بفضل تدفقها وروعة تواترها علي نسق معين وجرس منظم ، ولعل هذا أول ما يدركه الطفل بغريزته التي تميل إلي محاكاة الألفاظ والعبارات الموزونة والمقفاة بتركيبها الإيقاعيّ ونغمها الجرسيّ ، والتفاعل معها بالتقليد والمحاكاة ، وإن افتقرت إلى فحوى أو تضمنت معنى .

بين الوزن و الإيقاع

حاول بعض النقاد [٤] التفريق بين الوزن والإيقاع ، فحصر الوزن في الكلمة المفردة ، والإيقاع في الجملة أو الفقرة ، وهذا أمر يفتقر إلي الدقة ؛ لأن الوزن هو مجمل التفعيلات العروضية التي يتكون منها بيت الشعر وليس الكلمة المفردة وحدها ، وأما الإيقاع : فهو التوازن الناجم عن تقارب المسافات الفاصلة بين مقطع وآخر ، توازناً يضفي على الكلام نغمة موسيقية وروعة إيقاعية يتقيَّل المبدع سلفها ، ويقتفي أثرها ، في عمله الفنيّ ، ونتاجه الإبداعيّ ، فتتكرر معه علي زمن محدد ونسق معين في البيت من الشعر ، أو الجملة من النثر علي حدٍّ سواء ، وبهذا يكون الإيقاع أعمّ والوزن أخصّ .

---

[٤] ثلاث قضايا حول الموسيقي في القرآن ، د: نعيم اليافي ص٩٧، مجلة التراث ، السنة الخامسة العدد ١٧ ، ١٩٨٤ .

والإيقاع : قيمة بلاغية وروعة أسلوبية لا يقتصر دورها علي التلوين الصوتيّ والتزيين النغميّ ، وإنما لها دور بالغ الأثر في البنى التركيبية والقيم الجمالية المؤثرة في بناء النصّ ، وبهذا يصعب الفصل بينهما ، وإذا كان الوزن قسم من الإيقاع وركن أصيل من أركانه ، فإن الإيقاع يتجاوز في مفهومه النقدي وتأثيره الفني فحوى الوزن ؛ لأنه لا يعتمد على التفاعيل العروضية وحدها ، وإنما على نواح أخرى كثيرة تحتاج إلي مساحة نغمية وبنى تركيبية أبعد مما يوفرها الوزن .

كما فرق الدكتور محمد مندور بينهما بشيء قريب من هذا التصوّر فالوزن عنده : ما يستغرقه النصُّ من كمّ التفاعيل التي يتطلب نطقها زمناً معيناً في البيت الشعري ، أو ما يتضمنه من وحدات تفعيلية متساوية كما في الرجز ، أو متجاوبة كالطويل ، أما الإيقاع (rythme) فهو ترجيع ظاهرة صوتية ما علي مسافات زمنية متساوية أو متقابلة ، داخل الوحدة الموسيقية [٥] ، بيد أن هذه الترديدات الصوتية ينبغي أن تتسم بشيء من الاعتدال والتوسط ، فلا تتضاءل المسافة الزمنية بين السابق واللاحق حتى يتحول الصوت المتكرر إلي استطراد وإسهاب ، ولا تتناءي المسافة بين المترددين حتي تنقطع الصلة بينهما ويتحول الأمر إلي استبهام وإيهام.

---

[٥] ينظر : الأدب وفنونه ، د : محمد مندور ، ص ٣٤ ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، الطبعة الخامسة ٢٠٠٢ م .

الأثر النفسي للإيقاع القرآني

العرب قوم أولو بلاغة وفصاحة وبيان ، يأنسون بالفصول المتسقة من الكلمات والشذور المنتظمة من العبارات ، تبارى الشعراء في أسواقهم ، وتنافس الخطباء في منتدياتهم ، وغدا الاحتفاء بشاعر أو خطيب يُولد أحد جوانب عزّها ، ومصدر فخرها ، وعلوّ قدرها علي غيرها من القبائل ، ولمّا طرق القرآن أسماعهم هزّ أوتار وجدانهم ، ولامس شغاف قلوبهم بجرسه البديع ونغمه الرفيع ، فأيقنوا أنه غير ما ألفوه من دروب الشعر أو منثور القول ؛ لعذوبة وقعه وشدّة أثره ، وغدا التسليم بأنه قول بشر أمراً مستبعداً لا مراء فيه ولا جدال ، فهو كلام لا يبلغه ثناءٌ ، ولا يلحقه رجاءٌ ، وهو قول لا يستغرقه إسهابٌ ، ولا يبلغ مداه إطنابٌ ، ولا يقع عليه خطابٌ ، وقد أدركوا ذلك برهافة حسّهم ، وطول معايشتهم لمسجوع القول وموزون الشعر ، ووعيهم بجمالية الكلمة القرآنية ، ونغمتها الإيقاعية وما تحويه من هالات نورانية تسطع في نفوسهم ، وتبرق في قلوبهم بوقعها الشجيّ وجرسها السميّ ، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه لمّا سمع القرآن رقّ قلبه وتبدّل أمره ، ولم يلبث ملياً حتى آمن بربه . كما أدرك الوليد بن المغيرة برهافة حسه فخامة لفظه ، وجزالة جرسه ، وانسجام وقعه ، حين جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقرأ عليه شيئاَ من القرآن ، فبلغ ذلك أبا جهل ، فخاف أن يتحول الوليد عن دينه ، فأتي إليه قائلاً : يا عمّ ،

إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه ، فإنك أتيت محمداً ، لتتعرض لما قِبَله ، فأقبلت بوجه غير الذي ذهبت به ، قال: لقد علمت قريش أني من أكثرها مالاً ، قال : فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكرٌ له ، وأنك كارهٌ له ، فقال: وماذا أقول ؟ فو الله ، ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ، ولا أعلم برَجَزه ولا بقصيده مني ، والله ما يُشبه الذي يقول شيئاً من هذا ، ووالله إن لقوله لحلاوةٌ ، وإن عليه لطلاوةٌ ، وإن أعلاه لمثمرٌ، وإن أسفله لمُغْدِقٌ ، وإنه يعلو وما يُعْلَى عليه ، وإنه ليحطم ما تحته .[٦]

والقرآن الكريم معجزٌ بإيقاعه اللفظيّ وجرسه النغميّ ، وبما يدفعه في القلب من تأثير نفسيّ ، وصدى شعوريّ ، حتي قيل " فُتحت الأمصار بالسيوف ، وفتحت المدينة بالقرآن "[٧] ، بعدما مكث " مصعب بن عمير " رضوان الله عليه يتلو فيهم آيات الله ، فآمنوا واستقدموا علي إثرها رسول الله حتي يبايعوه علي ما أنزل الله .

---

٦ فى ظلال القرآن ، سيد قطب ، الجزء السادس ، ص ٣٧٥٦، الطبعة الخامسة والعشرون ١٩٩٦دار الشروق القاهرة .

٧ بيان إعجاز القرآن للخطابي : (ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن) ص٧١ .

ولأهمية الإيقاع القرآني وتأثيره النفسي علي قلوب السامعين ، حثّ اللهُ تعالي علي تلاوة كتابه بصوت عذب مجوّد ، ونغم إيقاعي مرتل ، ينفذ به إلي مكامن النفس ومقاصد الفكر ، فقال سبحانه : " وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً " [٨]، وقوله : " كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا"٩ ، فتأكيد فعل الترتيل بالمفعول المطلق " تَرْتِيلاً " دليلٌ علي أهمية ترجيع آيات القرآن بنغم إيقاعيّ ، ونظام صوتيّ ، يحافظ علي النسق الجرسيّ المعجز الذي يتميز به لفظ الكتاب المجيد ، ويؤكد إعجازه الفنيّ ونمطه الإبداعيّ ، ومنه قوله : " وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنّا فَضْلا يَا جِبَالُ أَوّبِي مَعَهُ وَالطّيْرَ " [١٠] فالآية تصور قيمة الإيقاع الصوتيّ المنغم في تجاوب مظاهر الكون مع داود عليه السلام ، وأنه بلغ من التأثير النفسيّ ، والتواتر النغميّ درجةً تجعل الجمادات تصدح مسبحةً ، وتهفو مرددةً ترانيم نبي الله داوود .

كما ورد في الأثر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ليس منا من لم يتغن بالقرآن "[١١] ، وقوله : " لكل شيء حلية وحلية القرآن

---

٨ سورة المزمل ، آية :٢ – ٤

٩ سورة الفرقان ، آية :٣٢

١٠ سورة سبأ ، آية : ١٠

١١ المصنف لعبد الرزاق بن همام ، الجزء الثاني ، ص ٤٨٣ ، تحقيق : محمد حبيب الله الأعظمي ، الطبعة الأولى ، المجلس العلمي ، الهند ١٣٩٠هـ .

الصوت الحسن "[١٢] ؛ لكن هذا التغني محكوم بقواعد لغوية ، ومعايير أصولية تنأى بالقرآن جانباً عن الإنشاد الرهباني وغناء أهل الفسق والفجور ، ولحون الكتابيين .

لقد أدرك العربي برهافة حسّه وبلاغة طبعه جمالية النظام التوقيعي والبناء الصوتي المعجز الذي تبني به مفردات القرآن الكريم ، فرغم بلوغهم درجةً ساميةً ومنزلةً عاليةً في فنون الشعر ودروب النثر ، إلا أن حلاوة جرسه وطلاوة صوته كانت أول شئ امتلك عليهم شغاف قلوبهم وتغلغل في سويداء أفئدتهم ، كما أدرك العلماء خصوصية اللفظة القرآنية ، فبدا الوقوف علي جمالية إيقاعها ، ورونق نظمها ، ودقة تصويرها أمراً مبكراً عند علماء اللغة ، فعلموا أن الإيقاع يُزجى من تآلف الحروف وانسجامها ، وتواتر الكلمات في جملها ، واتساق الجمل في تركيبها ، وعزوا إعجاز هذا التآلف الإيقاعي البديع إلى تحرره من قيود المعنى ، ومتطلبات القافية ، الذي لا ينزع فيه إلي غريب وحشيّ ، أو مبتذل سوقي ، وإنما يطرق الأسماع برقة لفظه ، وسلاسة نطقه ، وفخامة نمطه ، كما تتمثل فاعلية النسق القرآنيّ في تأثيره النفسيّ وموفوره الروحي الذي يأخذ بتلابيب القلب ، وسويداء النفس ، فتتحرك بلفظه الضمائر ، وتجري علي مضامينه الخواطر .

---

١٢ نفسه .

انسجام البنية القرآنية

للإيقاع القرآني قيمة تعبيرية كبرى تتجلى في انسجام بنيته الصوتية ، وتلوين مقاطعه اللفظية بوحدات جرسية وصور نغمية قادرة على تصوير المعاني وتمثيلها في هيئة متجددة حيّة ومشاهدة مرئية ، وتبدو فاعلية الإيقاع القرآنيّ وإعجازه اللغويّ في انتقاء مفردات مصورة بجرسها ، موحية بوقعها ، تسهم في تلوين الخطاب بمقامات السياق ، ومتطلبات الحال ، فتتدفق ألفاظه في انسيابية ، وتتواتر جمله في أريحية .

وإيناس النفس الإنسانية بالإيقاع النغمي لمفردات وجمل القرآن الكريم أمرٌ يرتبط بالتكوين الداخلي للنفس البشرية التي تأنس بالتوقيعات الصوتية المتجاوبة والمساحات الزمنية المتساوية ، وهذا ما يؤكده سقراط في قوله : " حين يسلم الإنسان نفسه للموسيقى ، ويقبل عن طريق الأذن .... تفيض على نفسه سيولُ الأنغام الشجيّة البديعة ... فمهما يكن في إنسان ... من النزق الشديد القسوة كالفولاذ ، فإنه يلين .....، وإذا ثابر علي ذلك منذ طفولته دون فتور.... أذاب فعل الموسيقى

ما فيه من نزق وغضب ....، فإذا كانت نفسه بطبيعتها عديمة النزق حصلت فيها هذه النتيجة سريعاً "١٣.

كما أدرك الجاحظ قيمة النغم الإيقاعي على الحالة النفسية للحيوان ، ودرسه تحت عنوان " أثر الأصوات في الحيوان " قائلاً : " والدَّوابُّ تَصرُّ آذانها إذا غنَّى المكارِي ، والإبل تصرُّ آذانها إذا حدا في آثارها الحادي ، وتزداد نشاطاً ، وتزيد في مشيها ، ويجمع بها الصيادون السمك في حظائرهم التي يتخذونها له.... ، والأيائل تصاد بالصفير والغناء ، وهي لا تنام ما دامت تسمع ذلك من حاذق الصوت ..... والصفير تُسقى به الدواب الماء ، وتنفَّرُ به الطير عن البذور" [١٤]

فالأثر الفني الذي يتركه الإيقاع الصوتيّ لا يمكن أن يحقق غرضه النفسيّ وإيناسه الوجداني إذا كان علي طبقةٍ صوتيةٍ واحدةٍ من الصعود والهبوط ، وإنما يحققه التوالي المنتظم لوحداتٍ إيقاعيةٍ ، وبنى تركيبية موجودة علي مسافات معينة من الخطاب .

---

١٣ جمهورية أفلاطون ، ترجمة حنا خباز ص٨٦ ،٨٧ ، مطبعة المقتطف والمقطم ١٩٢٩م

١٤ كتاب الحيوان ، للجاحظ ، الجزء الرابع ، ص ١٩٣ ، تحقيق : عبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٦م .

وأما عن التجانس الصوتيّ والتلاؤم الإيقاعيّ في ألفاظ القرآن الكريم ، فكان أول من وقف علي بيان خطره ، وجمال أثره ، وتآخي نغمه ، هو الجاحظ ، ثم أبو الحسن الرماني ، عند دراسته لتلاؤم الحروف وانسجامها ، وتناسق الجمل في تراكيبها ، ثم دراسته للفاصلة القرآنية ، فذكر أن فائدة التلاؤم تكمن في " حسن الكلام في السمع ، وسهولته في اللفظ ، وتقبّل المعنى له في النفس ..... ، وقوله : " والتلاؤم يظهر بسهولته علي اللسان ، وحسنه في الأسماع ، وتقبّله في الطباع " [١٥] ثم ذكر دور الفاصلة ، وأثرها في تجلية المعاني وتوضيحها ، قائلاً : الفاصلة "حروف متشاكلة في المقاطع تُوجب حسن إفهام المعاني ، والفواصل بلاغةٌ والأسجاع عيبٌ ، وذلك أن الفواصل تابعة للمعاني ، وأما الأسجاع فالمعاني تابعة لها " ١٦ ، فقوله : " توجب حسن إفهام المعاني " ، يؤكد وعيّه لأهمية الفاصلة القرآنية ، وقيمتها الأسلوبية التي تمدّ السامع بروافد إيحائية وظلال تصويرية بفضل إيقاعها الجرسيّ وترديدها الصوتيّ ، فلا يشعر بفجوة نفسية ، أو صدمة وجدانية ، وإنما يشعر بانسياب لفظيّ وتواتر نغميّ ، تشنف له الآذان وتخشع له القلوب والأبدان .

---

١٥ النكت في إعجاز القرآن للرماني (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) ، ص٩٦ .

١٦ نفسه ، ص٩٧ .

ومن أوائل المتحدثين عن جمالية التشكيل الصوتي والإيقاع النغمي للفظ القرآني ، ودورها في استجلاء الفكرة وتوضيحها ، وتنبيه النفس وإيقاظها ، عليٌ بن عيسى الرماني ، وحمد بن إبراهيم الخطابي[١٧]، وابن سنان الخفاجي[١٨]، وجار الله الزمخشري [١٩]، وبدر الدين الزركشي[٢٠]، وابن الأثير [٢١]، فجميعهم قد توارد علي آراء متقاربة إزاء تناولهم

---

١٧ بيان إعجاز القرآن للخطابي (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) ص ٢٧ .

١٨ وأما الخفاجي فيبرز حديثه عن الإيقاع في رده علي الرماني بقوله : " أما قول الرماني : إن السجع عيب ، والفواصل بلاغة علي الإطلاق فغلط ؛ لأنه إن أراد بالسجع ما يكون تابعاً للمعنى وكأنه غير مقصود ، فذلك بلاغة والفواصل مثله ، وإن كان يريد بالسجع ما تقع المعاني تابعة له وهو مقصود متكلف فذلك عيب ، والفواصل مثله " ينظر (سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي) ١٧٣ ، ١٧٤ ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٢ م.

١٩ فى معرض حديثه عن تكرير " الكب " فى قول الله تعالى من سورة الشعراء آية ٩٤ : " فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ "، جعل التكرير فى اللفظ دليلاً علي التكرير في المعنى كأنه إذا ألقي فى جهنم ينكب مرةً بعد مرة حتى يستقر فى قعرها ، ينظر الكشاف ، للزمخشري ، الجزء الثالث، ص ١١٩.

٢٠ الذي يري بأن الفاصلة عنده كلمة آخر الآية ، كقافية الشعر وقرينة السجع .. وتقع عند الاستراحة بالخطاب لتحسين الكلام بها، وهي الطريقة التي يباين بها القرآن سائر الكلام. البرهان للزركشي ، الجزء الأول ص ٥٣ ــ ٥٤ .

٢١ وقد تناول هذا فى مقالته " الصناعة اللفظية فى اللفظة المفردة ، والألفاظ المركبة " وذكر مما اشتملت عليه ألفاظ القرآن الكريم ، وناسبت فيه ألفاظه معانيه

التلاؤم بين الألفاظ وتأليفها ، والتناسب بين الأصوات وانسجامها ، ودورها في توفير إيقاع نغميّ يورث الكلام حسناً ، ويمنحه روعة وسحراً ، مع بقاء المعاني علي ما يقتضيه حسن نظامها وسحر التئامها

كما تنبه صاحب العقد الفريد إلي القيمة الجمالية التي يؤديها النغم المتواتر علي نسائم النفس في وحدات جرسية متساوية ، توفر قسطاً متبايناً من التطريب الذي يعمل عمل السحر في النفوس بقوله " الصوت الحسن يسري فى الجسم ، ويجري فى العروق ، فيصفو له الدم ، ويرتاح له القلب ، وتهشُّ له النفس ، وتهتزُّ الجوارح ، وتخفُّ الحركات ..... وقد يُتوصل بالألحان الحسان إلي خيرِ الدنيا والآخرة ، فمن ذلك أنها تبعث علي مكارم الأخلاق من اصطناع المعروف ، وصلة الرحم ، والذبّ عن الأعراض ، والتجاوز عن الذنوب ..... حتى إن البهائم لتحن إلي الصوت الحسن وتعرف فضله ، والنحل أطرب الحيوان كلِّه

؛ لجرسها الفريد ، ووقعها العجيب ، كلمة " ضِيزَىٰ " من قوله تعالى : " تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ " بأنها فى موضعها لا يسدُّ غيرها مسدَّها ، ألا ترى أن السورة كلها التي هي سورة النجم مسجوعة على حرف الياء ، فقال تعالى : " والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى " وكذلك إلى آخر السورة ، فلما ذكر الأصنام وقسمة الأولاد ، وما كان يزعمه الكفار قال : " أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى " فجاءت اللفظة على الحرف المسجوع الذي جاءت السورة جميعها عليه ، وغيرها لا يسد مسدها فى مكانها . المثل السائر ، لابن الأثير ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، الجزء الأول ، ص ١٦١ المكتبة العصرية ، بيروت ، لبنان .

إلي الغناء " [٢٢] ، وقد أغري تلاؤم جرس الألفاظ وانسجامها ، وجمال أنغامها وإيقاعها المستشرقين لدراسة البنية الإيقاعية للسور القرآنية ، فأنشأ بعض المستشرقين فصلاً خاصاً عند ترجمته للقرآن الكريم عن إيقاعه وروعة أدائه [٢٣] ، فاهتم " بيار كرابون دوكابرونا " وهو مستشرق فرنسي بإيقاع القرآن الجرسي ونظامه النغمي المعجز ، فذكر أنه يعتمد في بنائه الأسلوبيّ على " نظام إيقاعيّ خاص – لاسيما السور المكية – التي تعتمد في طريقة بنائها علي قطع موسيقية جديدة ، ومقاطع نغمية فريدة " [٢٤] ، وفي هذا الإطار نوّه كذلك المستشرق الألماني " بلاشير " بدور النغم الجرسيّ والبناء الإيقاعيّ للتركيب القرآنيّ علي النفس البشرية ، مؤكداً أن انتظام مقاطعه القرآنية ، وتناغم وحداته الجرسية ، وتنوع فواصله التعبيرية تقف وراء إعجازه

---

٢٢ العقد الفريد ، لابن عبد ربه الأندلسي : الجزء السادس ، ص٦ ، ٧ ، تحقيق د: محمد التونجي ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ٢٠٠١ م .

٢٣ انظر : Marcin ١٩٧٠. Regulative Principles in the Quran , Arberry. The Holy Quran , Nelson / The Art of Recitating the Qur'an p ١٥٧ , ٨٥. تناولت الباحثة الجوانب الموسيقية في تلاوة القرآن ، انظر ص ١٥٧ وما بعدها.

٢٤ أحد المستشرقين الفرنسيين . في كتابه :

Pierre Cropon de Caprona Le Coran Aux Sources de la parole Oraculaire . Paris

اللغوي في اللسان العربي [٢٥]. وذكر أدونيس : " أن البنية العميقة في الموسيقي القرآنية لا تكمن في التأليف بين حروف اللفظ المفرد وتناغمه وحسب ، بل تتمثل البنية الداخلية العميقة للنص القرآني في موسيقى لغته ، فالنص القرآني " نغمٌ " [٢٦]

وإذا كان البلاغيون القدماء قد فطنوا إلي دور الحروف في تحقيق التناغم الصوتي والإيقاع النغمي لمفردات القرآن الكريم ، فإن الرافعي قد بزّهم بزاً في الوقوف علي بيان أثر الحروف في البلاغة القرآنية ؛ لوقوفه علي فلسفتها الصوتية وصفاتها الأسلوبية ، وترتيبها باعتبار أصواتها ، ومناسبة بعضها لبعضها من حيث الهمسّ والجهر ، والشدّة والرخاوة ، والتفخيم والترقيق ، والتفشي والتكرير، ثم إشارته إلي الانسجام بين الكلمات وحروفها ، فهي " كيفما أدرتها ، وكيفما تأملتها ، وأين اعترضتها من مصادرها أو مواردها ، ومن أي جهة وافقتها ، فإنك لا تصيب لها في نفسك ما دون اللذة الحاضرة ، والحلاوة البادية ،

---

٢٥ ينظر طريقة التحليل البلاغي والتفسير ، تحليلات نصوص من الكتاب المقدس ، ومن الحديث النبوي الشريف ، ص ٢١، نائلة فاروقي ، وأهيف سنو ، ترجمة : جرجورة حردان ، وهنري عويس ، الطبعة الأولى ، دار المشرق بيروت ، لبنان ١٩٩٣.

٢٦ النص القرآني وآفاق الكتابة ، أدونيس ص٢٥ ، دار الآداب ، بيروت ،الطبعة الأولى ١٩٩٣م بتصرف .

والانسجام العذب ، وتراها تتساير إلي غاية واحدة ..... تختلف ولا تراها إلا متفقة ، وتفترق ولا تراها إلا مجتمعة ، وتذهب في طبقات البيان ، وتنتقل فى منازل البلاغة ، وأنت لا تعرف منها إلا روحاً تداخلُك بالطرب ، وتُشربُ قلبك الروعة ، وتنتزع من نفسك حسن الاختلاف الذي طالما تدبّرت به سائر الكلام ، وتصفحت به على البلغاء فى ألوان خطابهم ، وأساليب كلامهم ، وطبقات نظامهم " [٢٧]

وتبدو فاعلية الإيقاع القرآني في نسقه الإبداعي ، ونمطه الأسلوبي الذي يؤدي وظائف جمالية ، ومناحي أسلوبية ترنو إليها الأبصار وتنزع إلي بغيتها الآمال ، وتهيم العقول في فصولها المتسقة ، وفرائدها المستعذبة ، وهذا دليل علي " أن الأثر الممتع للإيقاع ثلاثيّ : عقليّ ، وجماليّ ، ونفسيّ ، أما عقليّاً : فلتأكيده المستمر أن هناك نظاماً ودقة وهدفاً في العمل بالمنهج الرباني والتنزيل الإلهيّ ، وأما جماليّاً : فإنه يخلق جواً من حالة التأمل الخيالي الذي يضفي نوعاً من الوجود الممتلئ في حالة شبه واعية علي الموضوع كله ، وأما نفسيّاً : فإن حياتنا

---

٢٧ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، للرافعي ، ص ٢٤٠-٢٤١ ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، رقم الإيداع بدار الكتب ٩٧/٢٧٨٢ ، وانظر : الإعجاز القرآني وجوهه وأسراره ، د/ عبد الغني بركة ، ص ٢٥٢ ، مكتبة وهبة ، القاهرة ١٩٨٩م .

إيقاعية : المشي ، والنوم ، والشهيق ، والزفير ، وانقباض القلب وانبساطه "[٢٨]

روافد الإيقاع القرآني

تتعدد روافد الإيقاع القرآنيّ والنغم الجرسيّ الذي تثيره وحداته اللغوية وتراكيبه الأسلوبية ، وتتواتر جميعها علي توفير مساحة من التقابل الصوتيّ ، والتناسق الفنيّ ، الذي ينبعث من تآلف الحروف في مفرداتها ، وتناسق الكلمات في جملها ، وتقارب الأوزان في مبانيها ، وتناسب الوجوه في معانيها ، إلي غير ذلك من المحسنات الصوتية والمعنوية كالترديد ، والترصيع ، والموازنة ، والسجع ، والجناس ، والتكرار ، والمشاكلة ، والطباق ، والمقابلة ، ورد الأعجاز علي الصدور ، والجمع مع التقسيم ، وتشابه الأطراف ، والمجاورة ، والذكر والحذف ، والتقديم والتأخير ، والالتفات ، إلي غير ذلك من الصور التي تعمل علي توفير ترديد إيقاعيّ ونغم جرسيّ يسهم في التناسق الإبداعيّ للنصّ القرآنيّ .

---

٢٨ الأسس الجمالية في النقد الأدبي ، د : عز الدين إسماعيل ص ٣٦٤ ، دار الفكر العربي ، مصر ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٤م

وهو بهذا يحتل منزلة ساميةُ ودرجة عاليةً من جماليات التصوير وفنون التعبير ، فيظل أسلوبه بديع الأنساق عجيب الأنماط ، تتنوع فيه الفواصل وتتشابه فيه المقاطع ، دون أن تتقيد بمعني أو ترتبط بلفظ ، وهذا الأسلوب الربانيّ يشعر المتلقي بمتعة نفسية تلبي رغباته الوجدانية وحاجاته الإنسانية ، بفضل تنغيمه الإيقاعيّ وترديده الجرسيّ ، الذي يبعث فى النفس طاقة روحية لها تأثيرات شعورية تصادف ما يتوخاه السامع من صوت جميل وإيقاع رتيب ، يلامس شغاف القلوب ، ويرهف أحاسيسها الوجدانية ، ويوقظ طاقتها التأملية ، ومن هذه الروافد.

أولاً : تآلف الحروف في مفرداتها

تتميز المفردة القرآنية بخصائص إيقاعية وملامح جرسية تعمل على تناغم الحروف في مفرداتها وانسجامها في جملها ، فتكون منتظمة الحركات ، متسقة النبرات ، تثير بوقعها العواطف الإنسانية ، والانفعالات الوجدانية التي تسري في وجدان السامع ، ومشاعر المتلقي ، وتتركز هذه الموسيقية في تناسق الحروف في مفرداتها ، وتآزر الأصوات فى تراكيبها ، تآزراً يهزُّ مشاعر البدويّ والحضريّ ، والأعجميّ والعربيّ ، ويدرك من خلالها المواءمة الصوتية والمناسبة الإيقاعية التي تسري فى مناحي الجملة القرآنية .

فانظر إلى إيقاع " يَصْطَرِخُونَ " في قوله تعالي :"وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ "[٢٩]، تجد إرداف الطاء بالصّاد ، واتصال الرّاء بالخاء ، والمد بالواو والنون ، يرسم صورة حسية وهيئة صوتية لحالةٍ مفزعةٍ ، ولوحةٍ مروّعةٍ من الصراخ والصياح ، الذي ينتاب أهل النار من شدة عذابهم وقوة اصطلائهم في نار جهنم وقانا الله شرها .

ومن الصور الإبداعية الأخرى التي تبلغ منزلة سامية ودرجة عالية فى جماليات التناسق الجرسي ، والتناغم الإيقاعي الذي تزخر به اللفظة القرآنية ، تكرار حرف " الطاء " و " الشين " في مساحة ضيقة من صيغ القرآن الكريم كما في قوله : "وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ " فـــ " الطاء " حرف استعلاء مطبق ، شديد مجهور ، و " الشين " حرف مهموس مفتوح رخو ، وتبدو فاعلية الصورة الصوتية والجمالية النغمية ماثلة في التلاؤم البديع بين الحروف وصفاتها وما توحي به من عنف وقسوة وشدة ، واستعلاء وغلو في الطغيان والظلم ، يرسمه النظام التوقيعي لحرفي " الطاء " و" الشين " في اللفظ القرآني .

وقد تناول ابن أبي الأصبع المصري ، دراسة التناسق الفني والتناغم الإيقاعي فى باب " ائتلاف اللفظ مع المعنى " ، وذكر أن

---

٢٩ سورة فاطر ، الآية : ٣٧

تلخيص هذه التسمية ، مفادها " أن تكون ألفاظ المعنى المراد يُلائم بعضها بعضا ، ليس فيها لفظة نافرة مع أخواتها ، غير لائقة بمكانها ، كلها موصوف بحسن الجوار ، بحيث إذا كان المعنى غريباً قُحًّا ، كانت ألفاظه غريبة محضةً .... ومن هذا الباب قوله تعالى : " وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ "[٣٠] ، لمَّا كان الركون إلى الظالم دون فعل الظالم ، وجب أن يكون العقاب عليه دون عقاب الظالم ، ومسّ النار فى الحقيقة دون الإحراق ، ولمّا كان الإحراق عقاباً للظالم أوجب العدل أن يكون المسُّ عقابَ الراكن إلى الظالم ؛ فلهذا عدل عزّ وجل عن قوله : " وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ " فتدخلوا النار ؛ لكون الدخول مظنة الإحراق ، وخصّ المسّ ليشير به إلى ما يقتضي الركون من العقاب ، ويميز بين ما يستحق الظالم ، وبين ما يستحق الراكن له من العقاب " [٣١]

وهذه الفكرة من الدرس التطبيقي للجرس القرآنيّ وإيقاعه النغميّ ، شاعت في مصنفات كثير من النقاد ، لكن يبقى الجاحظ من المبكرين في وضع مبادئ هذه الدراسة التطبيقية ، التي تُعنى بالانسجام الفني ، والاتساق التعبيري بين اللفظ والمعنى ، فاشترط لذلك مواءمة الكلمات

---

٣٠ سورة هود : آية ١١٣ .

٣١ بديع القرآن لابن أبى الأصبع المصري ، تحقيق د : حفني محمد شرف ، ص٧٧ ، ٧٨ مكتبة نهضة مصر ، الفجالة ، القاهرة ، الطبعة الأولى١٩٥٧م

فيما بينها ، وموافقة الحروف في مفرداتها ، حتى تأتي متلاحمة الأجزاء سهلة المخارج غير متنافرة ولا مستكرهة ، لا يعتريها قربٌ شديدٌ ، فتكون أدعى للتعثر والتلعثم ، ولا يصيبها نأيٌ بعيدٌ ، فيكون أدعي للخشونة والتعقيد ، فمثلاً " الجيم " لا تقارن " الظاء " ؛ لأن " الجيم " تخرج مابين اللسان والحنك الأعلى ، و " الظاء " تخرج من بين الثنايا وطرف اللسان ، ولا " القاف " و " الطاء " ؛ لأن " القاف " تخرج من أول الحلق ، و" الطاء " من طرف اللسان وأصول الثنايا ، ولا " الغين " بتقديم ولا تأخير ؛ لأن " الغين " تخرج من أدني الحلق ، كما أن " الزاي " لا تقارن " الظاء " ؛ لأن " الزاي " تخرج من طرف اللسان ومن الثنايا السفلى ، و" الظاء " تخرج من طرف اللسان والثنايا العليا ؛ كما أن " الضاد " لا تقارن " الذال " ؛ لأن " الضاد " من حافة اللسان مما يلي الأضراس ، و " الذال " من طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا ، وهذا يتواءم مع فكرة الجاحظ في الحكم علي الكلمة بالوعورة والخشونة ، والتقعر والتعقيد ، والاستهجان والقبح ، فسهولة المخرج ، وسلاسة النطق ، أدعى إلى التجانس الصوتي ، والتناغم الجرسي ، " وكلما كانت الدلالة أوضحَ وأفصح ، وكانت الإشارة أبْينَ وأنْورَ ، كان أنفعَ وأنْجعَ " [٣٢] ، " والسبب في هذا التلاؤم هو تعديل الحروف في

---

[٣٢] البيان والتبيين ، للجاحظ ، تحقيق : عبد السلام هارون ، الجزء الأول ، ص٧٥ ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان، ١٩٩٠م.

التأليف ، فكلما كان أعدل كان أشد تلاؤماً ، وأما التنافر فالسبب فيه ما ذكره الخليل بن أحمد الفراهيدي من البعد الشديد أو القرب الشديد ، والفائدة في التلاؤم حسن الكلام في السمع ، وسهولته في اللفظ ، وتقبل المعني له في النفس ، لما يرد عليها من حسن الصورة ، وطريق الدلالة " [٣٣]

إن التناسق الفـــني والتناغم الإيقاعي الذي يعتري ألفاظ القرآن الكريم ، مردُّه إلي التلاؤم الشديد والانسجام البعيد بين الحروف ومخارجها ، والصفات وتلاؤمها ، فلا يصيبها نأيٌ سحيقٌ " يصعب الانتقال فيه من مخرج إلي مخرج ، ولا التقارب الشديد الذي يجعل بعض الحروف يدغم في بعض ..... وهذا التلاؤم في ألفاظ القرآن ليس مقتصراً علي المخارج فحسب ، بل هو موجود في نغم الألفاظ وجرس القول ، إذ لا نجد حرفاً ينشز في موسيقاه عن أخيه ، ولا الكلمة عن أختها ، ولا الجملة عن لاحقتها " [٣٤] ، وهذا يجعل اللفظ القرآني يحيط نفسه بهالات نورانية ، وظلال إيقاعية ، تحقق الاستقرار النفسي وتنشر الإيناس الروحي ، فإذا رتلت آياته علي العربي والعجمي ، أو الحضري والبدوي ، وجد تجانساً صوتياً وإيقاعاً تركيبياً بديعاً تميل إليه الآذان

---

٣٣ النكت فى إعجاز القرآن للرماني (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) ص ٩٦ .

٣٤ المرجع السابق ص ٨٧ .

وتخشع بصوته الآبدان ، فلا يستشعر فيه كلمة نابية ، ولا متكلفة جافية ، وهذا أحد أهم روافد الإعجاز في ألفاظ القرآن ، الذي هُيّأت آياته ، ونُسّقت مفرداته لمخاطبة الحاسة الوجدانية ، بلغة جمالية وروعة فنية .

إن المتأمل في آيات القرآن الكريم ليقف مبهوت الرؤى ، متحير الوجدان أمام تناسق ألفاظها وتجانس إيقاعها ، وتركيبها علي نسق فريد ، ونمط عجيب " وأنها كيفما أدرتها وكيفما تأملتها ، ومن أي جهة وافقتها ، فإنك لا تصيب لها في نفسك ما دون اللذة الحاضرة والانسجام العذب ، وتراها تتسابق إلي نهاية واحدة ، تختلف ولا تراها إلا متفقة ، وتفترق ولا تراها إلا مجتمعة ، وتذهب في طبقات البيان ، ومنازل البلاغة ، وأنت لا تعرف منها إلا روحاً تداخلك بالطرب " [٣٥]، وتملأ قلبك بجميع أنواع العجب .

– ومن الصور الجرسية الأخرى التي يضفي صوت السين فيها قدراً فنياً ، وأسلوباً بنائياً يحمل إشارات نفسية ودلالات معنوية ، تحاكي جرسها وترسم تفاصيلها ، قوله تعالي في النهي عن السخرية من الآخرين والاستهزاء بهم " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ

---

٣٥ الإعجاز القرآني وجوهه وأسراره ، د: عبد الغني بركة ، ص ٢٥٢ . القاهرة ، مكتبة وهبة ، الطبعة الأولي ١٩٨٩ م

الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ "[٣٦]

فانظر إلي شيوع صوت السين وذيوعه في مفردات هاتين الآيتين ، وتأمل كيف وظفه البيان القرآني في محاكاة السخرية من الناس والاستهزاء بهم في: " يَسْخَر، عَسَى ، نِسَاء ، نِّسَاء ، عَسَى ، بِئْسَ ، الاِسْمُ ، الْفُسُوقُ ، تَجَسَّسُوا " ، فجرس " السين " له دلالة معنوية ووظيفة تصويرية تجسد حالات الهمس ، والغمز ، والهمز ، وتبرز الاستهزاء بالناس واستصغارهم في هيئة حسية وصورة تجسيدية ، وقد ساعد علي تجسيد هذه السخرية الصفات التي يحملها جرس السين ، فهو صوت أسناني ، لثوي ، رخو ، مهموس ، يسمع له صفير بسبب احتكاك الهواء الضيق عند التقاء طرف اللسان بالثنايا السفلي [٣٧] ، وإيثار التعبير القرآني به ؛ ليكشف الوسوسة الدائبة التي يتخافت بها المستهزؤن فيما بينهم ، ويرسم بجرسه تناسباً صوتياً ، وتناسقاً نغمياً يحاكي فحواه ، ويكشف مغزاه ، كما أن الصفة الترددية التي يحملها

---

٣٦ سورة الحجرات ، آية : ١١-١٢

٣٧ علم الأصوات اللغوية د: مناف مهدي محمد ، ص ٦٧ ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الأولي ، ١٩٩٨ .

صوت السين تكشف استمرار هذه السخرية ودوامها ، وأنها تتم في حالات مبهمة بعيدة عن أعين المُستهزَئِين .

ثانياً: تآلف المفردات في جملها

إذا كان كل حرف في القرآن الكريم له جرس محدد وإيقاع معين يؤدى به دوراً منوطاً في النسق الربّانيّ والتشريع السماويّ ، فإن للكلمة القرآنية أسراراً بلاغية ، وفرائد بيانية ، تتمثل في دقّة وضعها ، وروعة انسجامها ، وصدق برهانها ، وشدّة نهوضها ، فلا تقوم مفردة مقامها ، ولا تستبدل بكلمة أخرى غيرها ، فتكون معجزة بإيثارها ، مصورة بجرسها وإيقاعها ، مبينة بحركاتها وسكناتها ، وفى هذا يقول الخطابي : " اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل على فصول الكلام موضعه الأخصّ والأشكل به ، الذى إذا بُدّل مكانه غيره ، جاء منه إمّا تبدّل في المعنى الذى يكون من فساد الكلام ، وإمّا ذهاب الرونق الذى يكون معه سقوط البلاغة " [٣٨] ، فالخطابي يدرك بذائقته الفنية وروعته النقدية أثر الإيقاع القرآني في انتقاء المفردة القرآنية واصطفاء دلالتها السياقية ، ومعجزته البيانية فى جعل النفوس لها مشدودة ، والأذان لها مصروفة ، وجعل خلو الكلام منه دليل على ذهاب الرونق الذى يكون معه انتفاء

---

٣٨ بيان إعجاز القرآن للخطابي(ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن) ص ٢٦.

البلاغة ، وذهاب البراعة ، وهذا ما دعا الباقلاني إلى التأكيد على هذا بقوله : " أنت تحسب أن وضْع لفظ (الصبح) موضع (الفجر) يَحْسُن في كل كلام ، إلا أن يكون شعراً أو سجعاً ، وليس كذلك ، فإن إحدى اللفظتين قد تَنْفِرُ في موضع ، وتزِلُّ عن مكان لا تَزِلُّ عنه اللفظةُ الأخرى ، بل تتمكن فيه ، وتضربُ بِجرَانِها ، وتراها فى مظانِّها ، وتجدُها فيه غير مُنازعة إلى أوطانها ، وتجدُ الأخرى لو وُضعت مَوْضِعَها في محل نِفَار، ومَرْمَى شِراد ، ونابيةً عن استقرار " [٣٩] ، وهذا دليل على اهتمام الإيقاع القرآني بانتقاء الكلمة واختيارها ، وتوظيفها في سياقها ، وانطلاقها من قيم جمالية ، وفرائد جرسية ، ووشائج أسلوبية ، تربط المتلقي بظلالها التصويرية ، وتحيط نفسها بهالات إيحائية ، ويدرك ابن الأثير هو الآخر دقة الإيقاع القرآني ونغمه الجرسي بقوله : " ومن عجيب ذلك أنك ترى لفظتين تدلان على معنى واحد ، وكلاهما حسن في الاستعمال ، وهما على وزن واحد ، وعدة واحدة ، إلا أنه لا يحسن استعمال هذه في كل موضع تستعمل فيه ... ، بل يفرق بينهما في مواضع السبك ، وهذا لا يدركه إلا من دقَّ فهمه وجلّ نَظَرُهُ " [٤٠] ، وفي ذلك اعتراف بخطورة جرس المفردة القرآنية ،

---

٣٩ إعجاز القرآن للباقلاني ١٩٧، تحقيق : عماد الدين أحمد حيدر ، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٨٦م .

٤٠ المثل السائر، لابن الأثير ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد. الجزء الأول ، ص١٥٠ ، المكتبة العصرية، بيروت. ١٩٩٥م .

ووظيفته الإيقاعية ، وأنه مظهر من مظاهر الإعجاز الصوتي في سياق القرآن الكريم ، كما أولى الرافعي الإيقاع القرآني ونغمه الجرسي عناية فريدة ، فذكر أن الألفاظ القرآنية " في حركاتها الصرفية واللغوية تجرى في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة ، فيهيئ بعضها لبعض ، ويساند بعضاً ، ولن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف ، مُساوقةً لها في النظم الموسيقي ، حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة في نفسها لسبب من أسباب الثقل أيها كان ، فلا تعذُب ولا تُساغ ، وربما كانت أوْكسَ النصيبين في حظ الكلام من الحرف والحركة ، فإذا هي استعملت في القرآن ، رأيت لها شأناً عجيباً ، ورأيت أصوات الأحرف والحركات قبلها قد امتهدت لها طريقاً في اللسان ، واكتنفتها بضروب من النغم الموسيقي ، حتى إذا خرجت فيه كانت أعذبَ شيء وأرقه ، وجاءت متمكنة في موضعها ، وكانت لهذا الموضع أولى الحركات بالخفة والروعة " [٤١]، وهذا تأكيد على أن النسق القرآني والتعبير السماوي يتوخى التناسق البديع بين وحداته الجرسيّة ومفرداته اللغوية ، حتى يسهم في توفير طاقة روحية تجعل الأذان لنغمه مصروفة والقلوب إلى إيقاعه مشدودة ، فيكون أكثر تهيؤاً لما يحمله النص

---

٤١ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، للرافعي ، ٢٢٧ ، المكتبة التوفيقية ، مصر .

الربّاني من تشريع سماوي ، يجتذب القلوب له اجتذاباً ، ويستقطب العقول له استقطاباً .

ومن الدعائم الفنية التي تنتظم الوحدات الجرسيّة لمفردات القرآن الكريم ، فيسهم تناسقها الإبداعي ونغمها التركيبي في توفير مجانسة صوتية ومحاكاة تنغيمية ، تجعل الكلمات متآخية في جملها متموسقة في تركيبها .

المحاكاة الصوتية

وهي من قضايا الإعجاز الفني لألفاظ القرآن الكريم التي تشتمل عليه مفرداته اللغوية من محاكاة صوتية ، وأنغام إيقاعية تحاكي الحالة النفسية التي يتكوّن منها الحدث ، وهي ظاهرة فنية يتميز بها الخطاب القرآني ، حتي يلهب الطاقة الإيحائية لدى المتلقي ، وهذا دليل علي أن التشكيل الصوتي في القرآن الكريم يحيط نفسه بهالات تخييلية وظلال تصويرية ، تسهم في تقديم المعنى في هيئة تكثيفية وظلال تجسيدية ، وتعمل على ربطه بالظروف التي تحيط به زمانياً ، ومكانيا ً ، ونفسياً بفضل المناسبة الدقيقة والمواءمة الشديدة بين مخارج الحروف وصفاتها ، وجرس الألفاظ وإيقاعها .

ولنتأمل سوياً إيقاع كلمة " اثَّاقَلْتُمْ " في قوله تعالي : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ

بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ " ٤٢فالقيمة الفنية والروعة التعبيرية لكلمة " اثَّاقَلْتُمْ " تكمن فيما تحمله إيحاءاتها الصوتية ، ودلالاتها الإيقاعية من إشارات نفسية ، يحاكي فيها الصوت المعني حتي أنه ليكاد يرسمه رسماً ، ويمثله تمثيلاً ، فابتداء الكلمة بألف الوصل وإردافها بثاء ساكنة ، يوحي بالتكاسل عن الحركة ، والدعة إلي الهدوء والسكون ، وتأتي الثاء الثانية المشددة ، مبدلة في الأصل عن تاء ، ثم أدغمت الثاء في الثاء ؛ ليؤكد الإيحاء السابق حالة التقهقر والتراجع والقعود عن الجهاد التي اتصفوا بها ، ويصور شدّة التصاقهم بالأرض ، وعدم خروجهم للحرب ، فإذا دعوا إليه نكصوا علي عقبهم ، وانقمعوا في جبنهم ، فعميت عليهم المذاهب ، وكدمتهم المضارب ، ويسهم جرس الثاء ، والقاف ، واللام ، والميم وصفاتهم في تصوير هذا التخاذل والتراجع [٤٣] ، كما يؤكد جرس الميم الساكنة آخر

---

٤٢ سورة ، التوبة : ٣٨

٤٣ فالثاء صوت رخو مهموس مرقق ، يلتصق طرف اللسان بطرف الثنايا العليا والسفلي عند نطقه بصورة رخوة تسمح بمرور الهواء من منفذ ضيق ، كما يرتفع الحلق ، فيلتصق بحائط الحلق الخلفي ، وهذا يوحي بشدة رسوخهم وقوة التصاقهم في مكانهم من الأرض ، كما يسهم جرس القاف واللام في تصوير هذا المعني وتجسيده ، فالقاف صوت لهوي شديد مهموس ، يلتصق الحنك الأعلى بالجدار الخلفي للحلق عند النطق به ، واللام صوت لثوي جانبي مجهور يلتصق كذلك طرف اللسان باللثة عند النطق به ، وهذا يقدم تثبيط نفوسهم وخور هممهم في هيئة حسية وصورة تجسيدية .

الكلمة حالة الالتصاق والقعود بصورة أوضح في هيئة حسية وصورة تجسيدية ، فالميم صوت أنفي مجهور تنطبق الشفتان عند النطق به انطباقاً تاماً، وهذا يصور بشكل أوضح خنوعهم وجبنهم، وتطامنهم في مستقرهم .

– وتتجلي المحاكاة الصوتية بصورة مماثلة بشكلها الإيحائي ونغمها الجرسي ، الذي يسهم في استدعاء المعني وتجسيده ، وتقديمه في هيئة حسية وصورة تكثيفية ، في إيقاع كلمة "لَيُزْلِقُونَكَ " في قوله تعالي : وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُون " ٤٤

فالزّلق : زلل الرجل من ملاسة الأرض من طين عليها أو دهـــن ، ويقال: زلق السهم ، إذا نفذ ، أي يقتلونك بأبصارهم ، وعلي هذا يكون الزلق : استعارة مكنية شبه فيها حدة أبصارهم بالسهام ، ورمـــز إليـــه بشئ من لوازمه وهو الزلق [٤٥] ، وكما تـــري ، فثقـــل إيقـــاع كلمـــة "

---

٤٤ سورة القلم ، آية : ٥١ .

٤٥ " لَيُزْلِقُونَكَ أي يعثانوك. "بأبصارهم" أخبر بشدة عداوتهم النبي صلى الله عليه وسلم، وأرادوا أن يصيبوه بالعين فنظر إليه قوم من قريش وقالوا: ما رأينا مثله ولا مثل حججه. وقيل: كانت العين في بني أسد، حتى إن البقرة السمينة أو الناقة السمينة تمر بأحدكم فيعاينها ثم يقول: يا جارية، خذي المكتل والدرهم فأتينا بلحم هذه الناقة، فما تبرح حتى تقع للموت فتنحر. وقال الكلبي: كان رجل من العرب يمكث لا يأكل شيئاً يومين أو ثلاثة، ثم يرفع جانب الخباء فتمر به الإبل أو الغنم

لَيُزْلِقُونَكَ" يرسم المعني بجميع تفصيلاته النفسية وعناصره الحسية ؛ ليفضح ما في نفوسهم ، ويجلي شزرات عيونهم من حنق شديد وبغض بعيد لرسول الله ، فما أن تدركه أبصارهم حتي تلوح ضغينتهم ، وتبدو عداوتهم في هيئة حسية وطبيعة تصويرية ، تحاكي بجرسها وثقل إيقاعها حدة المعني وصعوبته ، فـ " اللام " المؤكدة في أول الكلمة صوت لثوي جانبي مجهور ، متوسط ما بين الشدّة والرخاوة ، ينزلق اللسان عند النطق به حتي يرتفع تعلّقه بالطبق الأعلى من الفمّ ، فيحدث حركة غير مؤتلفة في اللسان ، والمحاكاة الصوتية للحالة النفسية بادية فى جميع أصوات هذه الكلمة ، وهذا إعجاز بياني يختص به النظم القرآني والتعبير السماوي ؛ الذي يستفد كل ما المفردة من طاقات لغوية ، ودلالات أسلوبية ، حتى تمثّل المعني أصدق تعبير ، وتقدمه في أنسب تصوير .

فيقول: لم أر كاليوم إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه! فما تذهب إلا قليلاً حتى تسقط منها طائفة هالكة. فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب لهم النبي صلى الله عليه وسلم بالعين فأجابهم، لكن الله عصمه منهم . تفسير التحرير والتنوير ، لمحمد الطاهر ابن عاشور ، الجزء ٢٩، ص١٠٧ ، الدار التونسية للنشر ، تونس ١٩٨٤م ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، الجزء السابع عشر ٢٥٥ ، دار الكتاب العربي ، مصورة عن طبعة دار الكتب ، القاهرة ١٩٦٧م

– ومن المفردات القرآنية الأخرى التي يحاكي جرس الصوت فيها الحالة النفسية ، بغية الوصول إلي غايات إيحائية وطاقات تعبيرية كلمة " مُتَشَاكِسُونَ " في قوله تعالي : " ضَرَبَ اللّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا " [٤٦] ، فجرس هذه الكلمة ، وإيقاعها يسهم في رسم صورة تفصيلية وهيئة توضيحية لحالة التوتر الشديد والاضطراب البعيد للمشرك الذي يعبد أكثر من إله ، الذي تحكيه هذه الآية في مَثَلها القرآني ، والتشريح الصوتي لهذه الكلمة يسهم في محاكاة أصواتها للجوانب النفسية التي تعتري المتنازعين ، ويبرز شقاقهما حالة اختلافهما في هيئة حسيّة وطبيعة تكثيفية ، فتعاقب جرس " الشين " ، وما يحمله من تفشي ، و " السين " وما فيه من صفير ، وتوسطهما بصوت طبقي شديد هو " الكاف "، والمدّ بصوت شفوي مجهور هو " الواو"، والترنم بصوت لثوي أنفي مجهور هو " النون " ليرسم صورة مرئية نري فيها حالة الشقاق بأبصارنا ، ونسمع أصداء النزاع بآذاننا ، وهذا دليل علي " إن جرس الألفاظ وإيقاع العبارات ليشارك ظلال المشهد في رسم الجو، جو الغضب والغيرة والانتفاض "[٤٧] الذي تصوره الآية القرآنية .

---

٤٦ سورة الزمر ، الآية : ٢٩

٤٧ في ظلال القرآن ، سيد قطب ، مج ٤، ٢٣٢٠-٢٣٢١. الطبعة التاسعة ، دار الشروق ، بيروت ، ١٩٨٠.

ثالثاً : التكرار

يعدُّ التكرار[٤٨] واحداً من البنى التركيبية والنماذج الأسلوبية التي تحتل منزلة عالية ودرجة سامية في أولى خطوات الدرس الأسلوبي والخطاب التعبيري ، وهو روعة فنية وقيمة تعبيرية توائم مقتضيات النفس الإنسانية ومشاعرها الوجدانية ؛ وهو أحد وسائل الانسجام

---

٤٨ أصل التكرار فى اللغة من الكرّ بمعنى الرجوع والإعادة ، فكرر الشئ وكركره أعاده مرّة بعد أخرى ، وكررت الشئ تكريراً وتكراراً بمعني أعاده ، فجميع استعمالات هذه المادة " كرر " واشتقاقاتها تدور حول معني واحد هو الرجوع أو العودة . ينظر لسان العرب ، والقاموس المحيط للفيروزآبادى ، وتاج العروس وصحاح العربية ، مادة " كرر " .

وفى الاصطلاح : " تكرار كلمة أو لفظ أكثر من مرة في سياق واحد لنكتة ما ، وذلك إما للتوكيد ، أو لزيادة التنبيه ، أو التهويل ، أو للتعظيم" ، وعند السيوطي " فنٌ قولي من الأساليب المعروفة عند العرب ، بل هو من محاسن الفصاحة " ، وبيّن الجاحظ فائدة التكرار بقوله : " إن الناس لو استغنوا عن التكرير ــ التكرار ــ وكفوا مؤونة البحث والتنقير لقلّ اعتبارهم ، ومن قلّ اعتباره قلّ علمه ، ومن قلّ علمه قلّ فضله " ، وذكر الزركشي : " أن التكرير أبلغ من التأكيد ؛ لأن التأكيد يقرر إرادة معنى الأول وعدم التجوز "، ينظر : أنوار الربيع فى أنواع البديع ، لابن معصوم ، تحقيق: شاكر هادي شكر ، مطبعة النعمان ، النجف الأشرف ، الطبعة الأولى ١٩٨٦م ، ٣٤/٥ ،٣٥ ، والإتقان فى علوم القرآن للسيوطي ٣ : ١٧٩ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة الحسين القاهرة ١٩٦٧ م ، ورسائل الجاحظ ٣ : ١٨ تحقيق عبد السلام محمد هارون ، الخانجي ، القاهرة ١٣٨٤ ه ، والبرهان فى علوم القرآن للزركشي ، ص٦٢٨، تحقيق :أبي الفضل الدمياطي ، دار الحديث القاهرة ،٢٠٠٦م

اللفظي والإعجاز البلاغي في النص القرآني ، إذ به ينبه المتثاقل ، وينذر المتكاسل ، وهو من النماذج الأسلوبية التي تمد النسق القرآني بروافد جرسيّة وطرق إيقاعية بفضل ما يحويه من شذور منتظمة وألفاظ متسقة ، يظهر البحث في مكنونها أزكى منتظر ، ويبين مضمرها عن أجلّ مختبر.

وتتجلى روعة التكرار القرآني فى ترديده الإيقاعي ونغمه الجرسيّ الذي تعتمد عليه مفرداته اللغوية ، وتشكيلاته الأسلوبية ، من تركيب أصواته ، وترتيب حركاته ، وتوزيع حروفه بشكل يعانق فيه اللفظ صورته المعنوية وبنيته الحسيّة ، فجميع هذه الروافد الصوتية تجعل للتكرار فى القرآن الكريم نغماً جرسياً وترديداً إيقاعياً هو جزء أصيل من جماليته التعبيرية وطريقته الأسلوبية التي يخاطب بها العقل الإنساني ، ويستشرف بها حسّه الوجداني .

ومن الروافد الإيقاعية التي ينتهجها التعبير القرآني لتوفير مساحة تنغيمية ترتاح لها النفوس والآذان ، وتأنس بانسجامها العقول والأذهان : التكرار المقطعي في نطاق الكلمة المفردة ، وهو نمط أسلوبي يمنح التشكيل الصوتي لمفردات القرآن إيقاعاً نغمياً ، وجرساً موسيقياً يفعم الكلمة القرآنية بظلالٍ تصويرية ، وطاقات إيحائية ، ويرفدها بمظاهر دلالية ، وقيم جمالية .

١ـ تكرار الحروف

وهو نوع من التكرار الصوتي الذي تتركب فيه الكلمة من مقطعين متوازيين ، يكرر فيها الحرف الأول والثاني ، من ذلك قوله " فَكُبْكِبُوا " من قوله تعالى : " فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ " ٤٩ تجد تكرار صوت الكاف والباء يرسم صورة حسية ولقطة تصويرية لمشهد التدهور الشديد ، والارتطام البعيد الذي يعترى أهل النار مع أصنامهم جزاء عبادتهم لها فى الدنيا من دون الله ، يساعد فى تمثيل هذا المعنى جرس " الكاف " و " الباء " ، فالكاف صوت طبقي شديد مهموس ، عند النطق به يلتصق الحنك الأعلى بالجدار الخلفي للحلق فيسد المجري الأنفي ، ثم يخرج الهواء دفعة واحدة محدثاً صوتاً انفجارياً شديداً ، وأما الباء ، فصوت انفجاري شديد مجهور تنطبق الشفتين عند النطق به ثم تنفرج بشكل مفاجئ ، واجتماع هذين الصوتين فى كلمة واحدة ، ثم تكرارهما على هذا النحو ، يرسم مشهداً تصويرياً ، ووصفاً تفصيلياً للتدافع المتوالي والارتطام المتنامي للمشركين مع أصنامهم فى قاع جهنم ، وهذا الإيقاع التصويري يوحي بامتهانهم بعد عزّهم ، وتطامنهم بعد شموخهم ، وذلهم بعد كبرهم ، وقد ذكر الزمخشري : أن" الكبكبة تكرير

---

٤٩) سورة ، الشعراء ، الآية :٩٤

الكبّ ، جعل التكرير فى اللفظ دليلاً على التكرير فى المعنى ، كأنه إذا ألقي في جهنم ينْكبُّ مرةً بعد أخرى ، حتى يستقر في قعرها " [٥٠]

ثم تأمل تكرار جرس الزاي واللام في كلمة " زَلْزَلَة " من قوله تعالي : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ " [٥١] ، فـ " الزاي " صوت أسناني لثوي رخو مجهور مرقق ، تهتز الأوتار الصوتية عند النطق به اهتزازاً ، و" اللام " صوت لثوي جانبي مجهور ، تكون الأوتار الصوتية هي الأخرى فى حالة اهتزاز عند النطق به ، ويؤدى إيقاع تكرار هذين الصوتين وظيفة نفسية ، تشعر السامع بالمشهد المروع الذي يعتري الناس فجأة ، وتقدمه في هيئة تصويرية ، وطبيعة تمثيلية ، يستشعر المتلقي خطرها ، ويستخفه الهلع من نازلتها ، وتمنح حركة التضعيف المشهد تخويفاً وترهيباً من قيام الساعة ، فالأرض من شدة ارتجافها وقوة زلزالها ، تخرج الأشياء عن مراكز ثبوتها ، ومواطن استقرارها ، وتبدو فاعلية هذه الكلمة فى معانقة الجرس للمعني ، فطريقة بنائها ، ومنهجية توظيفها في سياقها يبلغ حد الإعجاز البياني ، وهو أهم خصوصيات اللفظ القرآني ، ولذا تجد هذه الكلمة مصورة بجرسها وإيقاعها " هزة عنيفة للقلوب الغافلة ، هزة يشترك فيها الموضوع ، والمشهد ، والإيقاع اللفظي ، وصيحة قوية

---

٥٠ الكشاف للزمخشري ، الجزء الثالث ، ص ١١٩

٥١ سورة ، الحج ، الآية : ١

مزلزلة للأرض ومن عليها.....إنه يوم القيامة حيث ترتجف الأرض الثابتة ارتجافاً ، وتزلزل زلزالاً ، وتنفض ما في جوفها نفضاً، وتخرج ما يثقلها من أجساد ومعادن وغيرها مما حملته طويلاً ، وكأنها تتخفف من هذه الأثقال التي حملتها طويلاً ، وهو مشهد يهز تحت أقدام المستمعين لهذه الصورة كل شئ ثابت ، ويُخيّل إليهم أنهم يترنحون ويتأرجحون والأرض من تحتهم تهتز وتمور ، مشهد يخلع القلوب من كل ما تتشبث به من هذه الأرض وتحسبه ثابتاً باقياً وهو الإيحاء الأول لمثل هذه المشاهد التي يصورها القرآن ويودع فيها حركة تكاد تنتقل إلى أعصاب السامع بمجرد سماع العبارة القرآنية الفريدة " [٥٢].

فانظر إلى إيقاع كلمة" حَصْحَصَ " في قوله تعالى : " قالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ " [٥٣] ، تجد تكرار صوت " الحاء " و " الصاد " يرسم صورة حسية ولوحة توضيحية لظهور الدلائل وسفور الحقائق التي تبرئ ساحة يوسف عليه السلام مما لحق به من ضيم وما اعتراه من ظلم على يد امرأة العزيز ، يساعد فى مثيل هذا المعنى وتوضيحه جرس الصوتين المكررين ، فالحاء صوت حلقي رخو مهموس مرقق ، والصاد صوت أسناني لثوي رخو مهموس مفخم ، له دويّ صفير ،

---

٥٢ فى ظلال القرآن سيد قطب ، الجزء السادس ، ص٣٩٥٤ ، دار الشروق ، الطبعة الخامسة والعشرون ، القاهرة ، ١٩٩٦م .

٥٣ سورة ، يوسف ، الآية : ٥١

واجتماعهما على هذا النحو يرسم مشهداً تصويرياً ، ووصفاً تفسيرياً لبراءة نبي الله يوسف بين أبناء مصر فى هذا الزمان .

ثم تدبر إيقاع " صَرْصَرٍ " في قوله تعالى : " وَأَمّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بريح صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ " [٥٤] ، وقوله : " إنّا أرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ ريحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍ " [٥٥] ، تجد تكرار صوت " الصاد " و " الّراء" يرسم صورة حسية ولقطة تصويرية لمشهد إعصار شديد له برد لاسع ، وزمهرير قارص ، وصوت مدوي ، تسمع في غضونه صوت اصطكاك الأسنان ، وارتطام الأحجام ، حتى تنعدم في أجوائه طرق النجاة من هول النازلة ، وفداحة الواقعة .

ثم تأمل جرس " السين " في كلمة " عَسْعَسَ " من قوله تعالى : " وَاللّيْلِ إذَا عَسْعَسَ وَالصُّبْحِ إذَا تَنَفّسَ " [٥٦] ، وانظر إلى روعة إيقاعها وخفة جرسها ، وشدة دهمائها ، وسكون أجوائها ، حتى تستشعر في جماليتها الصوتية ، راحة نفسية وطمأنينة روحية ناشئة من هذا النغم القرآنى الذي يلبى رغبات النفس الإنسانية وحاجتها الوجدانية .

---

٥٤ سورة ، الحاقة ، الآية : ٦

٥٥ سورة ، القمر ، الآية :١٩

٥٦ سورة ، التكوير ، الآية : ١٧

ولننظر إلي الجمالية الصوتية التي يثيرها حرف " السين " في قوله تعالي : "وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّه بِضُرٍّ فَلَا كَاشِف لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلّ شَيْء قَدِير "٥٧ ، وقوله : " إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ " [٥٨] ، فالسين صوت أسناني رخو مهموس مرقق ، وتكراره على هذا النحو أربع مرات في الآية الأولي ، وثلاث مرات في الآية الثانية في مساحة لغوية متقاربة ، وتواترها علي نسق واحد تكون فيه السين الأولي متحركة والثانية ساكنة ، يومئ إلي تعاقب الإصابة بالأمراض وتوالي الأعراض واحداً تلو الآخر حتى لا يكاد يبرأ المبتلى منها ، أو إلى تواتر الخيرات وتنامي البركات على الإنسان ، فالإصابة بالشر والخير أمر لا يقدر عليه إلا مدبر الأمر وميسر الخير رب العالمين وحده ، والبعد النفسي لإيقاع هذا التكرار ؛ يوقظ وعيّ السامع من غفلته حتى يستشعر قدرة الله في كشف الضر ، و إصابة الخير ، ويؤمن بأنه أمر محصور فيه دون غيره .

ثم تأمل تكرار جرس " الواو" و " السين " في كلمة " فَوَسْوَسَ " من قوله تعالي : " فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا " [٥٩] تجد تكرار صوت " الواو " مع " السين " يؤدي وظيفة

---

٥٧ سورة ، الأنعام ، الآية : ١٧

٥٨ سورة ، آل عمران ، الآية ١٤٠

٥٩ سورة ، الأعراف ، الآية : ١٨٥

نفسية في صورة خفيّة ، تجسد انفعال الإنسان في صراعه مع الشيطان الذي يواصل التأثير عليه بوسوسته الخفية حتى يعصى ربه ويفسد أمره ، فيسعي إلى التلاعب بعواطفه الآدمية ومشاعره البشرية ، ويحتدم بينهما الصراع فى إطار خفيّ وشعور نفسيّ ، يوغل صدر المرء بالمغريات التي تستميل الوجدان وتستقطب الإنسان بعيداً عن منهج الرحمن .

ولنقف عند تكرار جرس " الدال " و " الميم " في كلمة "فَدَمْدَمَ " من قوله تعالي : "فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا "[٦٠] ، فـــ " الدال " صوت انفجاري شديد مجهور ، و" الميم " صوت شفوي مجهور تنطبق الشفتين انطباقاً تاماً عند النطق به ، وجرسهما يمثل صوت الصاعقة المدمرة والرجفة المهلكة التي صاح بها جبريل عليه السلام بأمر من ربه غضباً عليهم ، وتبدو فاعلية إيقاع هذه الكلمة في تمثيل العذاب وتكثيف الهلاك ، وتقديمه في هيئة تصويرية وطبيعة تجسيدية ، وقد تكون الدمدمة بمعنى آخر غير الصيحة ، وهو شيوع الهلاك وعموم الدمار وإطباقه عليهم من كل جانب ، فلم ينج منه صغير أو كبير ، كما تقول: دمدمت البئر: أي أطبقت عليها التراب .

---

٦٠ سورة ، الشمس ، الآية :١٤

ثم تأمل تكرار جرس " الزاي " و " الحاء " في كلمة " زُحْزِحَ " من قوله تعالي : " كُلّ نَفْس ذَائِقَة الْمَوْت وَإِنّمَا تُوَفّوْنَ أُجُوركُمْ يَوْم الْقِيَامَة فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النّار وَأُدْخِلَ الْجَنّة فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاة الدّنْيَا إِلّا مَتَاع الْغُرُور " [٦١] ، فكلمة زحزح مصورة بجرسها وإيقاعها طريقة إبعاد المؤمن وتنحيته عن النار فى سرعة شديدة قبل أن يلتهمه سعيرها ، ويلفحه لهيبها ، ويسهم تكرار صوت " الزاي " و" الحاء " في تخيّل الهيئة الحركية والطبيعة التصويرية ، للسلامة الباقية ، والوقاية الوافية التي تقوم بها عناية الله ورعايته بحفظ المؤمن وجذبه في برهة خاطفة ولمحة وامضة من عذاب السعير .

٢- تكرار المفردات

تكرار المفردة القرآنية ظاهرة أسلوبية تحقق نغمة جرسية وروعة إيقاعية ، تستميل النفس الإنسانية وتؤثر في مشاعرها الوجدانية ، وهي إحدى وسائل التعبير وطرائق التصوير الذي تتجلى روعتها الفنية فى دقة أدائها ، وكيفية توظيفها فى سياقات فنية ، وصيغ جمالية تمتلك نظاماً صوتياً طروباً ، له آفاق رحبة من التخييل وطرق بعيدة من

---

٦١ آل عمران ، الآية : ١٨٥

التصوير، وهو ظاهرة أسلوبية وليدة تناسق الكلمات فى جملها ، وتجانس الصيغ فى سياقها .

وتكرار المفردات في القرآن الكريم أسلوب فني ونمط بديعي يأتي متحرراً من كل قيد يقيد المعنى ، أو يكبل نظامه الصوتي ؛ لأنه يتشكل وفق اقتضاء دلالي وتكثيف بياني ، له غاية فنية وروعة تعبيرية تفتح آفاقاً بعيدة من التمثيل ، وأنماطاً عديدة من التخييل ، ويأتي علي ثلاث صور مختلفة ونماذج متنوعة أولها :

١- تكرار المفردة القرآنية في أول الجملة ، كتكرار كلمة " رَبَّنَا " في قوله تعالي : " رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ، رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ، رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادِ " [٦٢]

وقوله : رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ، رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ

---

[٦٢] سورة ، آل عمران ، الآية : ١٩١ – ١٩٤

" ٦٣، فتكرار كلمة " رَبَّنَا " في صدر هذه الآيات يحدث توازياً صوتياً ونغماً إيقاعياً ، له دلالة نفسية وروعة بيانية ، توحي بالتضرع ، والتذلل ، والإلحاح في الابتهال ، والدعاء إلي رب العالمين ، وتلاوة هذه الآيات بطريقة تنغيمية تتوازى فيها الوحدات الصوتية ما بين الصعود تارة والهبوط تارة أخري ، يمنح الآيات توافقاً صوتياً يناسب مقامات الدعاء الذي هي مخّ العبادات ، وعندئذ تشعر بقيمة التكرار الفنية ، ونضارته الأسلوبية التي تسهم في توفير مساحات بعيدة من الأداء الصوتي لمفردات القرآن الكريم ، وتعمل علي خلق توازن نفسي واستقرار معنوي ، يبث الطمأنينة الروحية وتبعث براحة نفسية في خلجات النفس الإنسانية .

وقد ذكر العلامة النورسي أن بعض صور التكرار في القرآن مردّها إلي الدعاء والذكر ، فكما أن القرآن كتاب شريعة وحكم ومعرفة ، فهو كذلك كتاب ذكر ودعاء ودعوة ، والذكر يُردّد، والدعاء يُكرّر ، والدعوة تُؤكد ، فيكون تكراره أحسن وأبلغ ، بل ألزم " [٦٤]

---

٦٣ سورة ، البقرة ، الآية : ٢٨٦

٦٤ ينظر كليات رسائل النور – الكلمات– بديع الزمان سعيد النورسي ، ترجمة : إحسان قاسم الصالحي ، ص ، ٥٣٠ ، الناشر: شركة سوزلر ، الطبعة الثانية ،القاهرة ٢٠٠٢م

وتكرار الكلمة في أول الكلام من آيات القرآن الكريم كثير ومتعدد ، وجميعه يعمل على خلق مساحة إيقاعية ونغمة جرسية تأنس لترديدها القلوب ، وتميل لأنسها النفس ؛ لما تحويه من توازن صوتي وتوافق نغمي ، من ذلك تكرار إبراهيم عليه السلام " ياأبت " مع أبيه " آذر" فى قوله تعالي : " يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يَبْصِرُ وَلاَ يُغْنِى عَنكَ شَيْئاً يا أَبَتِ إِنّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً يا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً يا أَبَتِ إِنّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مّنَ الرَّحْمَانِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً . "[٦٥]

وتكرار الاستفهام " أَمَّنْ " في قوله تعالي : " أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلا مَّا تَذَكَّرُونَ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ

---

٦٥ سورة ، مريم ، الآية : ٤٢ -٤٥

اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ٦٦

٢- ومن أنماط تكرار المفردات في القرآن الكريم تكرارها متوسطة ، كترجيع كلمة " زلزل " في قوله تعالي : " إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا " [٦٧] فتكرار هذه الكلمة له قيمة تعبيرية كبري تتجلي فاعليتها في تكرار المعني وتقويته ، وتقديم مشهد قيام الساعة في لقطة حية وصورة مشاهدة مرئية ، حتي يستشعر السامع خطرها ويستخفه الهلع من شدة زلزالها ، فيقبل علي الطاعات ويدبر عن المنكرات ، وهذا دليل علي أن تكرار المفردات في القرآن الكريم له قيمة أسلوبية كبري ، تتجلي فاعليته الفنية وروعته البيانية في حسن إيقاعه ، وروعة بنائه ، وتقديم المعني في هيئة تصويرية ، وطبيعة تكثيفية ، وهذا من أخص دلائل الإعجاز البياني الذي يتصف به اللفظ القرآني .

ومن أمثلة تكرار المفردة القرآنية متوسطة ترجيع كلمة " مَوْرًا " و " سَيْرًا " في قوله تعالي : " يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ، وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا " [٦٨] ، فالمقابلة بين "تَمُورُ " و "مَوْرًا " و " تَسِيرُ " و"سَيْرًا" وتكرارها

---

٦٦ سورة ، النمل ، الآية : ٦٠-٦٤

٦٧ سورة ، الزلزلة ، الآية :١-٢

٦٨ سورة ، الطور ، الآية : ٨-٩

علي هذا النحو ، تخلق إيقاعاً سريعاً متدفقاً ، يواكب الحدث ، ويستحضر عناصره الحركية في هيئة التصويرية ، وطبيعة تجسيمية ، وتبدو فاعلية التوازن الإيقاعي بين كلتا الكلمتين ، في تلوين الخطاب القرآني بمثير سمعي يعكس حالة من الترديد النغمي والتوازن الكميّ ، لجرس المفردات القرآنية وصيغها التعبيرية ، كما يتضمن التكرار شيئاً من التنبيه للنفس الغافلة ، وزيادة إيقاظ للقلوب الآبقة عن طاعة ربها ، وتذكيرها بيوم الحساب ، والتحذير من غضب الله يوم التناد.

٣- ومن أنماط تكرار المفردة القرآنية آخر الآية ، ترجيع كلمة " دَكّاً " وكلمة " صَفّاً " في قوله تعالى : " كلا إذا دُكت الأرض دَكّاً دَكّاً ، وجاء ربك والملك صَفّاً صَفّاً " [٦٩] ، فهو تكرار له غاية بلاغية وروعة إيقاعية تجعل أمر " الدك " والتسوية في الأرض أمراً حتمياً يصيب كل شئ على وجهها من جبل أو شجر ، فهي حين تُدكُّ الأرض دكاً ، وتُزلزل زلزلةً ، لا يخلد على ظهرها شيء ، من دور أو قصور أو جبال ، وتبدو فاعلية التكرار فى إيقاعه التوضيحي وجرسه التخييليّ الذي يجعل التدمير أمراً متصوراً في هيئة حسية وصورة تجسيدية .

كما يضفي تكرار كلمة " صَفّاً " في قوله تعالي: " وجاء ربك والملك صَفّاً صَفّاً " إيقاعاً نغمياً ووصفاً تفصيلياً لمشهد من مشاهد يوم القيامة ،

---

٦٩ سورة ، الفجر ، الآية : ١٦

تظهر فيه عظائم الله وجلائله حين يتجلي للملائكة وهم وقوف بين يديه "صَفّاً صَفّاً " تعلوهم الخشية وتتلقفهم الرهبة ، ولا تكلم نفس عنده إلا بإذنه ، في صفوف منتظمة ، وأنماط مؤتلفة ، والتناسق النغمي ، والانسجام الإيقاعي في هذا التكرار ، ينقل السامع إلي معايشة الجو النفسي الذي يصف الحدث ويستحضر مشاهده في هيئة تصويرية وطبيعة تجسيدية.

– ثم تأمل التناسق الصوتي والتناغم الإيقاعي الذي تبدعه تكرار كلمة "سَقَرَ" ثلاث مرات في سورة المدثر ، وهي تحكي قصة عذاب الوليد بن المغيرة المخزومي ؛ لوصفه الرسول بالساحر ، فى قوله تعالي : " " سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ..... مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ " [٧٠] ، ذكر بن عباس وتبعه جمهور المفسرين بأن سقر : هي الدرك السادس من جهنم [٧١]، وهي مشتقة من قولهم سَقَرَتْهُ الشمس إذا أحرقته ، والسّاقُور: حديدةٌ تُحمي ويكوي بها الحمار [٧٢]، ولتكرار هذه الكلمة نغم إيقاعي ، وترجيع جرسي ، يوحي بالمبالغة والتأكيد في وصفها والتنفير من شرها ، وللإيحاء بعظم حرّها ، وقد أتي

---

٧٠ سورة ، المدثر ، آية : ٢٦–٢٧–٤٢ .

٧١ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي الجزء التاسع عشر ، ص٨٧ .

٧٢ سقر : اسم من أسماء جهنم ، لسان العرب ، الجزء الرابع ، ص٣٧٢ ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

السياق القرآني بـــ " لا " هي الأخرى مكررة بعد الواو العاطفة حتي ينتفي احتمال وقوع النفي عن أحد الفعلين دون الآخر ، وتركيز النصّ القرآني على التجانس الصوتي والترديد الإيقاعي توجيه مقصود ؛ لأنه يمنح آياته جمالاً فنياً ، وتأثيراً وجدانياً ، يخاطب النفس الإنسانية بنغمة إيقاعية تشنف لها الآذان ، وتقشعر منها الأبدان .

٣ - تكرار الجمل والآيات

إذا كان استعادة صوت حرف في التعبير السماوي يثري الدلالة ويقوي العبارة ، ويمدها بروافد إيقاعية ووظائف دلالية ، فما بالك بترجيع جمل تامة في سياقها وآيات كاملة في سورها ، لا شك أن هذه الاستعادة تمنح النص القرآني مزيداً من صور الإعجاز البياني ، والتنغيم الإيقاعي الذي يأتي لغاية صوتية واقتضاءات دلالية ، تجدب النفوس إليها جذباً ، وتهيئها لاستيعاب ما يلقي عليها تهيئةً ، فهذا التكرار يورث الكلام حسناً ، ويمنحه تناسقاً وسحراً ؛ لأنه مما تقتضيه دلالات المقام ومضامين الكلام ، وما تدعو إليه الحاجة في التشريع السماوي والخطاب القرآني .

ومن الآيات القرآنية التي يضطلع التكرار فيها بدور هام في تحقيق التناغم الصوتي والتكثيف الدلالي ، ويرسم ظلالاً إيحائية ومعاني تصويرية ، تأخذ بيد السامع لمعايشة أجوائها ، والوقوف علي أحداثها

قوله تعالي : " إِنّهُ فَكّرَ وَقَدّرَ ، فَقُتِلَ كَيْفَ قَدّرَ ، ثُمّ قُتِلَ كَيْفَ قَدّرَ، ثُمّ نَظَرَ ، ثُمّ عَبَسَ وَبَسَرَ ، ثُمّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ، فَقَالَ إِنْ هَـذَآ إِلاّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ، إِنْ هَـذَآ إِلاّ قَوْلُ الْبَشَرِ، سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ، وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ، "٧٣ ، فهذه الآيات تحمل رسالة نفسية ووظيفة نغمية ، يؤديها التكرار المنتظم لبعض جملها ، وأنغام حروفها ، وإحكام سبكها ، ومتانة أجزائها ، فلا كلمة فيها تنشز في نغمها عن سابقتها ، ولا جملة تضطرب في سياقها عن لاحقتها ، وإنما يعلوها البيان في صحة برهان ، وتتداخل المشاعر الروحية في رسم ظلال إيحائية لحالة الوليد بن المغيرة ، تصوّرها تلك الحركة المتكررة في قوله : " إِنّهُ فَكّرَ وَقَدّرَ ، فَقُتِلَ كَيْفَ قَدّرَ ، ثُمّ قُتِلَ كَيْفَ قَدّرَ " فما أن يسمع المتلقي جرسها ويقرع أذنه تكرارها ، إلا ويتابع مشهدها " لمحة لمحة ... وخطرة خطرة ... وحركة حركة ... ، يرسمها التعبير، كما لو كانت ريشة تصوّر ، لا كلمات تعبّر ، بل لو كانت فيلماً متحركاً يلتقط المشهد لمحة لمحة ....؟ !! لقطة وهو يفكر ويدبّر ومعها دعوة هي قضاء " فَقُتِلَ " ؟ ! ، واستنكار كله استهزاء " فَقُتِلَ كَيْفَ قَدّرَ " ؟ ، ثم تكرار الدعوة والاستنكار لزيادة الإيحاء بالتكرار ... ، إنها لمحات حيّة يثبتها التعبير القرآني في المخيلة أقوي مما تبثه الريشة في اللوحة ، وأجمل مما يعرضها الفيلم المتحرك علي الأنظار "

---

٧٣ سورة المدثر ، آية :١٨ –٢٧

[٧٤] ، وتبدو فاعلية التكرار في هذا المشهد القرآني كونه أسلوباً تعبيرياً يصور انفعالات النفس الإنسانية ومشاعرها الوجدانية ، وينشر الضوء في جميع جوانبها التصويرية ، فكان مطلباً نفسياً حين تداخلت مشاعر الوليد بن المغيرة ، وثارت عواطفه وتأججت مشاعره ، وسدّت عليه المسالك ، واستُبهمت عليه المقاصد ، عندئذٍ كان التكرار مطلباً إيقاعياً واقتضاءً دلالياً .

– ومن الصور الإيقاعية الأخرى التي يضطلع التكرار فيها بوظائف جرسية ، وترديدات نغمية ، تمنح النصّ القرآني جمالاً صوتياً ، وتأثيراً وجدانياً ، يزيد من إبراز المعاني وتوكيدها ، وتخيّل الصور وتكثيفها ، قوله تعالي: " فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ " ، احدي وثلاثين مرة ، فهذا التكرار الجملي يمنح السورة بأثرها إيقاعاً نغمياً وترديداً جرسياً له غايته الإبداعية ، وفاعليته الأسلوبية التي يسعي بها إلي ترسيخ المعاني وتكثيفها ، وتفصيل النعم وتوكيدها ، فلا يدع للسامع فرصة لنكرانها ، أو التغافل عنها ونسيانها ، كما أنه يؤثر علي البنية الشكلية ، والطبيعة الأسلوبية التي يتشكل منها النغم القرآني والتشريع السماوي ، فذكر أبو هلال العسكري أن غاية تكرار هذه الآية في سورة الرحمن أن الله ، " عدد فيها نعماءه ، وأَذْكَرَ عبادَه آلاءَه ، ونبّههم علي قَدْرها وقُدْرَته عليها ، ولُطْفِه فيها ، وجعلها فاصلةً بين كل نعمة ؛ ليُعرَف موضعِ ما

---

٧٤ في ظلال القرآن ، سيد قطب ، الجزء السادس ، ص: ٣٧٥٧

أسْدَاه إليهم منها " [٧٥] ، وقد ذكر غيره الغاية من " تكرار هذه الآية يعكس خصوصية الأمر ، أو الاحتفاء به ، أو توكيده ، أو الرغبة إليه ، أو الحنق عليه ، أو الرضا عنه . كما أن التكرار استطاع أن يُكَيِّف سطح الخطاب في هذه السورة ، ويؤثر في طبيعة بنائه ، وهندسة معمارية نسجه ، إضافة إلى أنه منح هذه السورة العروس شيئاً من التمكن والثبات للإيقاع الذي يقوم عليه المقطع " [٧٦] .

رابعاً : الفاصلة القرآنية

الفاصلة هي آخر مفردات الآيات القرآنية ، كالقافية في آخر كلمات الأبيات الشعرية ، والسجعة في آخر الكلمات النثرية ، وسبب تسميتها بذلك قوله تعالى: " كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ " [٧٧] ، فتجنب النقاد تسميتها سجعاً تنزيهاً لها وتشريفاً ، فذكر القز ويني " أنه لا يقال في القرآن أسجاع وإنما يقال فواصل " [٧٨]

---

٧٥ الصناعتين الكتابة والشعر ، لأبي هلال العسكري ، تحقيق : على محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، ص٢٠٠ ، عيسى البابي الحلبي ، مصر١٩٧١ م .

٧٦ نظام الخطاب القرآني ، تحليل سيميائي مركب لسورة الرحمن ، د. عبد الملك مرتاض ، ٣٢٨ ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ،٢٠٠٣ .

٧٧ سورة فصلت ، الآية : ٣

٧٨ شروح التلخيص ، الجزء الرابع ، ص ٤٥٢ ، والمطول ، ص٤٤٥ ، والأطول ، الجزء الثاني ، ٢٣٤

والفاصلة : أهم روافد الإيقاع القرآني والنغم الجرسيّ التي تحدثه مفرداته اللغوية وتراكيبه الأسلوبية ، فتخلق جواً من التوازن الصوتي ، والتناغم الإيقاعي ، والتناسق الجمالي ، وتعرّف الفاصلة اصطلاحاً بأنها " حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني " [٧٩] ، أو أنها " توافق أواخر الآي في حروف الرويّ ، أو في الوزن ، مما يقتضيه المعني ، وتستريح إليه النفوس " [٨٠] ، وتقع الفاصلة " عند الاستراحة في الخطاب لتحسين الكلام بها ، وهي الطريقة التي يباين بها القرآن سائر الكلام ، وتسمي فواصل ؛ لأنه ينفصل عندها الكلامان ، وذلك أنّ آخر الآية فصل بينهما وبين ما بعدها " [٨١] ، وهي في القرآن تابعة للمعني ، منسجمة في موقعها ، تضفي علي النصّ روعة بيانية ، ونضارة صوتية ، فتتصل بترديدها وروعة إيقاعها بالمظاهر النفسية لدي السامع ، ولذا يعدّها البلاغيون والنقاد من أهم قضايا الإعجاز وترديدها النغمي الذي يحيط نفسه بهالات تصويرية وظلال تجسيدية ، فتأتي " في القرآن مستقرة في قرارها ، مطمئنة في موضعها ، يتعلق

---

٧٩ النكت في إعجاز القرآن للرماني : ٨٩ .

٨٠ الفاصلة في القرآن د: محمد الحسناوي ، ص :٢٩ ، دار عمّان ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٦

٨١ البرهان في علوم القرآن : الجزء الأول ، ص ٥٤ .

معناها بمعني الآية كلها تعلقاً تاماً ، بحيث لو طرحت لاختل المعني واضطرب الفهم " [٨٢] .

ومن الفواصل القرآنية التي يستأنس بها السامع ، لانسجامها الصوتي وترديدها الإيقاعي الذي يسهم في تهيئة السامع وجدانياً ، وتحريكه نفسياً مع الجو العام للحدث ونقله إلي أجوائه ومحيطه ، ليكون أكثر تأثيراً في مشاعره النفسية ومواقعه الوجدانية قوله تعالي في رسم مشهد من مشاهد يوم القيامة : " فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ، إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ، فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ، فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ، قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ، كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ، وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ، وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ، يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ، مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ ، هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ " [٨٣]

فهذه الآيات تعرض مشهدين متقابلين يوم القيامة ، الأول : مشهد أصحاب اليمين ، وهم الناجين من عذاب الله يوم الحساب ، والثاني : أصحاب الشمال الذين تعلوهم الحسرة ، وتملؤهم النكسة علي ما فرّطوا في حق الدعوة ، وقد راعى النمط القرآني في تصوير هذين المشهدين ،

---

٨٢ من بلاغة القرآن ، د : أحمد بدوي ٦٥ ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، بدون .

٨٣ سورة الحاقة ، الآية : ١٩-٢٩

توفير مسافات لغوية ، ومساحة أسلوبية ترفد المشهد بإيقاع نغمي وترديد جرسي يجعل النفوس لأجوائها مشدودة ، والعقول لأحداثها مصروفة ، فختم الآيات بـــ " هاء السكت "، ، ثم أتي بها تالية لحرف صائت هو" الياء " ، حتي يحدث انسجاماً صوتياً ، وتناغماً نفسياً ، يتناسق مع مشهد الفرح والسرور لأصحاب اليمين ، ويتساوق مع مشهد الحسرة والندامة لأصحاب الشمال .

وللوقوف علي الخصائص الجرسية التي يختص بها صوت الهاء ، ينبغي أولاً معرفة صفاته وأبرز سماته ، فالهاء : صوت حنجري ، احتكاكي ، مهموس ، تحدث له احتكاكات صوتية بسبب تباعد الوترين الصوتيين وانفراجهما ، فيمرّ الهواء عبرهما محدثاً صوتاً احتكاكياً ، وهذا يجعل صوته أكثر تمثيلاً ، وأوفر تصويراً للحالة النفسية والمشاعر الوجدانية التي تجيش بها نفس أصحاب المشهدين ، لاسيما مجيئه ردفاً لصوت الياء المكسور ما قبلها ، كما تمنح الموازنة الصوتية التي تتكون منها فواصل هذه الآيات القرآنية ، قيمة جمالية وروعة أسلوبية ، فالآية الأولي والثانية مختومة بوحدات صوتية متناغمة في الصوت متقاربة في الشكل ، مثل " كتابية " و " حسابية " ، وتأتي فاصلة الآية الثالثة جناساً شبه تام بين كلمة " راضية " و قاضية " ، كما تأتي الآية الرابعة بجناس شبه تام آخر بين " عالية " و " مالية " ، فجميع هذه الفواصل تضفي علي الأسلوب القرآني روعة بيانية ، ونغمة صوتية ، نتيجة

الموازنات البنيوية ، والتوازيات الصوتية التي تحفل بها الآيات القرآنية ، ومن روائع هذا التوازن الصوتي موافقته الأسلوبية من حيث الإيجاز والإطناب مع الحالة النفسية التي تنتاب صاحب المشهدين ، فالمؤمن من فرط سعادته ومنتهي فرحته يهتف في الحشود الواقفة بقراءة صحيفته ، لمشاركته بهجته قائلاً في عبارة موجزة : " هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ " ، بينما ينغلق الكافر علي نفسه ، فيظهر حسرته ، ويبدي لوعته ، ويبدأ محاورته النفسية ، ومناجاته الذاتية ، في طريقة سردية طويلة قائلاً : " يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ، وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ، يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ، مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ ، هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ " فالسياق يُطيل عرض هذه الوقفة حتي ليخيّل إلي السامع أنها لا تنتهي إلي نهاية ، وأنّ هذا التفجّع والتحسرّ سيمضي بلا غاية ، وذلك من عجائب العرض في إطالة بعض المواقف ، وتقصير بعضها ، علي وفق الإيحاء النفسي الذي يريد أن يتركه في النفوس ، وهنا يراد طبع موقف الحسرة وإيحاء الفجيعة من وراء هذا المشهد الحسير ، ومن ثمّ يطول ويطول في تنغيم وتفصيل "[٨٤]

---

٨٤ في ظلال القرآن ، سيد قطب ، الجزء السادس ، ص ٣٦٨٢ .

ومن الصور الأسلوبية الأخرى التي تلعب فيها الفاصلة القرآنية دوراً هاماً في توفير مساحة إيقاعية وروعة تنغيمية ، قوله تعالي في تصوير مشهد من مشاهد الفزع يوم القيامة : " يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ، وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ، ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ، وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ، تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ، أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ " ٨٥

تسهم الفواصل القرآنية في الآيات السابقة في تحقيق توازن صوتيّ وتناغم جرسيّ ، يجعلها منسجمة في سياقها ، مؤتلفة في إيقاعها ، تصوّر جوانب نفسية ، ومواقف شعورية تعتري الناس يوم الحساب ، فترسم بنسقها ، وروعة ترتيبها مشهداً مروعاً من مشاهد يوم القيامة ، حين يستفزهم القلق عن المهاد ، وتكتحل أعينهم بالسهاد ، ويفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، وهم أقرب الناس إلي قلبه مودة وألصقهم بنفسه محبةً ، لكن هول المفاجأة " تمزق هذه الروابط تمزيقاً ، وتقطع تلك الوشائج تقطيعاً " [٨٦] .

وتبدو فاعلية هذه الفواصل في روعة بنائها ، وتناسق تركيبها ، ومجيئها ممدودة في الآيات الأربع الأولي " أخيه " و" أبيه " و" بنيه " و " يغنيه " ؛ وهذا يعكس حالة الفزع الشديد والروع البعيد الذي يعتري

---

٨٥ سورة عبس ، الآية : ٣٣- ٤٢ .

٨٦ في ظلال القرآن ، سيد قطب ، الجزء السادس ، ص ٣٨٣٤ .

الناس يوم الحساب ، وتتنوع الفاصلة إلي " هاء " بعد " راء " بعد أن يتبدل من كل نفس حالها ، وتعرف مستقرها ومآلها ، فإن كانت من أهل الجنة يلوح بشرها ، ويظهر فرحها ؛ لذا آثر التعبير القرآني استخدام الفاصلة " مسفرة " و " مستبشرة " ، وأما إن كانت من أهل النار تظهر حسرتها وتلوح لوعتها ، ويناسب حالتها النفسية ، ومشاعرها الوجدانية ، الفاصلة " غابرة " و" قترة " و" فجرة " ، والقيمة الفنية والروعة البيانية للفاصلة القرآنية تبدو ماثلة في إيقاعها الصوتي وتوظيفها الدلالي ، وقد أتي في هذه الآيات متحرراً من كل قيد ، يمتلك آفاقاً رحبة من التخييل ، وانسجاماً بعيداً من التصوير ، فتآلفت حروفه في كلماتها ، وتناسقت كلماته في سياقها ، وتلاءمت آياته في تركيبها ، فكان إيقاعاً فريداً ونظماً بديعاً ، لا يماثله إيقاع ، ولا يقترب منه إبداع .

والفاصلة أحد لوازم البنية القرآنية ، التي تجعل الآيات متضافرة في نسقها ، متواترة في نغمها ؛ ولذا فقد حرص السياق القرآني علي توفير التوازن الموسيقي من خلالها ، وقد ذكر الرافعي أثرها الصوتي وغرضها الفني الذي تضفيه علي العبارة القرآنية قائلاً : " وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلا صورة تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقي ، وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقاً

عجيباً يلائم نوع الصوت والوجه الذي يُساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب " [٨٧]

ومن دلائل حرص القرآن علي توفير الجانب الصوتي في الفواصل ، انتهاء كثير من آياته بصوت الألف ، النون ، والميم ، فيعمل علي توفير مساحة صوتية ترفد العبارة القرآنية بشئ من التناسق الفني والترابط المعنوي ، وهذا يتواءم مع عادة العرب في كلامهم وطريقة تعبيرهم ، فكانوا كما ذكر سيبويه " إذا ترنموا يلحقون الألف ، والياء ، والنون ؛ لأنهم أرادوا مدّ الصوت ، ويتركون ذلك إذا لم يترنموا ، وجاء ذلك في القرآن علي أسهل موقف وأعظم مقطع " [٨٨]

ومن دلائل حرصه كذلك علي توفير مساحة صوتية ترفد العبارة القرآنية بإيقاعات نغمية وصور جرسية ، انصراف الفاصلة إلي إجراءات أسلوبية متنوعة ، كالتقديم والتأخير ، والذكر والحذف ، والتنغيم والترجيع ، وطريقة النبرات والنقرات فى الحركات والسكنات فى المقاطع والفواصل ، والعدول عن صيغة إلي أخري ، في مواءمة فريدة وموافقة بعيدة بين اللفظ والمعني ، وحالة نادرة يباين بها القرآن

---

٨٧ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، للرافعي ، ص : ٢١٦

٨٨ معترك الأقران ، للسيوطي : الجزء الأول ، ص : ٤٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٨٨م .

سائر الكلام فلا يحظى بها قول من شعر أو نثر ، وهذا برهان علي إعجاز القرآن الكريم في خصوصية تعبيره ، وقواعد نظمه وتشكيله .

– ومن صور التقديم التي وقف البلاغيون عند مراعاة فاصلتها للانسجام الصوتي والنغم الإيقاعي ، تقديم المفعول به في قوله تعالي :" قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ، قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ، فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ، قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى " [٨٩] ، فالخطاب القرآني آثر المحافظة علي المواءمة الصوتية في الفاصلة ، فأتي بالمفعول به علي خلاف نسقه المعهود ، دون أن يشكل هذا انتصاراً للفظ علي حساب المعني ، وهذا دليل علي الارتباط الفني بين التشكيل الأسلوبي وتناسقه الموضوعي ، وأثرهما معاً علي الجانب النفسي ، إذ " لا تحسن المحافظة علي الفواصل لمجردها إلا مع بقاء المعاني علي سردها ، علي المنهج الذي يقتضيه حسن النظم والقوافي ، فأما أن تهمل المعاني ويهتم بتحسين اللفظ وحده ، غير منظور فيه إلي مؤداه ، فليس من قبيل البلاغة " [٩٠] ، فتأخير الفاعل " موسي " إلي الفاصلة ، يحفز في الروح طاقة تشويقية ، وإثارة نفسية ؛ لمعرفة الفاعل ، فإذا جاء بعد تأخر ، استأنست به الخواطر ، وعلقت به الضمائر ، كما أن

---

٨٩ سورة طه ، الآية :٦٥ – ٦٨

٩٠ معترك الأقران ، للسيوطي ، الجزء الأول ، ص ٤٢

تقارب مفردات هذه الآية " نفسه ، خيفة ، موسي " يرسم صورة نفسية وهيئة وجدانية لدنو الخوف وقرب الرعب من موسي عليه السلام ، فانظر كيف كان دور الفاصلة فاعلاً في تحقيق التناغم الجرسي ، والتواتر الإيقاعي الذي يؤنس النفس ويبهج الروح ، ويطرب السمع ، وهذه الصورة النفسية والدلالة الوجدانية لم تكن تجري أبداً لو مرَّ النسق القرآني بترتيبه الطبيعي وهو" فأوجس موسي خيفة من نفسه " ؛ لأن الخوف سيكون بعيداً عن روح موسي بعد استحالة عصاه حيّة تسعي بأمر ربها ، ومعجزة رسولها .

– ومن الخصائص البنيوية التي تتميز بها الفاصلة القرآنية ، عدولها عن بعض الصيغ إلي صيغ أخري غيرها ، كالعدول عن البناء للمعلوم ، وإيثار التعبير بالبناء للمجهول ؛ بغية المحافظة علي انسجامها الصوتي ، ونسقها التعبيري ، قوله : " وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى " [٩١] فعدول الفاصلة القرآنية إلي صيغة البناء للمجهول " تُجْزَى " بدلاً من " نجزيه ثوابها " له دلالة نفسية توحي باستشراف المنفقين من المؤمنين جزاء ربهم وثواب إنفاقهم ، وإيثار انتهائها بالألف المقصورة هو " ملحظ شكلي من الزخرف البديعي الذي لا نقول بمثله في البيان الأعلى ، وإنما جاء البناء

---

٩١ سورة الليل ، الآية ١٩–٢١.

للمجهول لمقتضي معنوي ، وهو أن البذل هنا لم يكن عن قصد جزاء لأحدٍ أو من أحد علي الإطلاق ، وإنما هو خاص لوجه الله تعالي " [٩٢] .

– ومـــن الخصائص البنيوية الأخرى التي تتميز بها الفاصلة القرآنية ، هو تبدّل نسقها التوقيعي ، ونظامها التركيبي ، تبعاً لتغيّر الحال ، وتنوّع المـــقال " تنشيطاً للسامع والقارئ ، وللملاءمة والاتساق ، ومراعاة المعني ، وليس لمجرد الحلية اللفظية " [٩٣] ، من ذلك قوله تعالي : " وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحا ، فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ، فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ، فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ، فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ، إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ، وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ، وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ، أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ، وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ، إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ " [٩٤] ، فتنوع الفاصلة في السورة السابقة مابين " الحاء " و " العين " و " الدال " و " الراء " له غاية فنية وروعة بيانية ، يتميز بها البناء القرآني والتعبير السماوي ، دون غيره من وسائل التعبير الأخرى ، حيث يتنوع نظامها ، وتتعدد حروفها ، ويتبدل إيقاعها ، ويعدُّ هذا التنوع " ظاهرة ملحوظة تتبع تغيّر السياق والمشاهد والجوّ ، وتتناسق مع الموضوع والصور والظلال تمام التناسق ، وتشارك في إحياء المشاهد وتقوية وقعها علي الحسِّ " [٩٥] ، كما أن غاية تنويع الفاصلة دفع الملل ، وتجنب الضجر ، والأخذ بالنفس إلي شئ من التجديد والتنويع والتغيير ، وهذا مما يحسن

---

٩٢ التفسير البياني للقرآن الكريم ، د : عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ ، الجزء الثاني ص١١٧.مكتبة الدراسات الأدبية
، دار المعارف ، مصر ١٩٩٠ م

به " تنويع الكلام من جهة الترتيبات الواقعة في عباراته ، وفي ما دلت عليه بالوضع في جميع ذلك ، والبعد به عن التواطؤ والتشابه ، وأن يؤخذ الكلام من كل مأخذ حتي يكون مستجداً بعيداً عن التكرار ، فيكون أخفّ علي النفس وأوقع منها بمحل القبول "[٩٦] .

والتحليل البياني لفواصل آيات هذه الصورة نجد أن هذا التنوع يقذف في النفس شيئاً من الحبور واتساق الأمور ، ويجعل الإيقاع مسفر الأنوار ، طيب الآثار ؛ فالفاصلة الأولي " ضبحاً ، قدحاً ، صبحاً ، نقعاً ، جمعاً " يسهم تواتر تنوينها ، وقرع إيقاعها ، وانسجام تركيبها ، في رسم صورة حربية ، ولقطة حركيّة لخيل ينبعث صوت أنفاسها وهي تجدّ في عدوها ، وتنجرف في انطلاقها ، فلا تحدها حدود ولا تمنعها سدود .

ثم تتنوع الفاصلة ، تبعاً لتغير الحال وتبدل المقال فتفجأنا بصوت الدال " كنود ، شهيد ، شديد " في سياق جواب القسم ؛ لتفضح جحود النفس الإنسانية ، وتبرز حبها الشديد للمال ، ويسهم جرس الدال في تمثيل هذا المعني وتقديمه في هيئة حسية وطبيعة تكثيفية ؛ لأنها صوت

---

٩٣ مسائل فلسفة الفن المعاصرة ، جان ماري جويو ، ترجمة : د سامي الدروبي ، ص : ٦٩ ، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٤٨م .

٩٤ سورة العاديات ، الآيات : ١- ١١ .

٩٥ في ظلال القرآن ، سيد قطب ، الجزء السادس ، ص :٣٦٧٦-٣٦٧٧ .

٩٦ منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، لأبي الحسن القرطاجني ، ص ١٦-١٧ ، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة ، دار الكتب الشرقية تونس ١٩٦٦م

انفجاري ، شديد ، مجهور ، وهو أكثر الأصوات محاكاة لقوة كفرهم ، وشدة إطباقهم علي طلب المال .

ثم يتنوع الخطاب القرآني ، فتتغير الفاصلة إلي " الراء " بجرسها الخفي وإيقاعها الترددي ، فتدهمنا بصوت " القبور ، الصدور ، لخبير " ، ليوحي بحالة الخفاء التي كان عليها الناس في قبورهم ، وسترهم قبل نشرهم ، ويبرز ما كان في صدورهم من خير أو شر ، بعد خفائه في نفوسهم طيلة حياتهم وبعد مماتهم ، كما أن جرس الراء في آخر فاصلة " لخبير" يوحي بعلم الله المحيط بما كان ، وما سيكون في كل وقت وحال ، وعلمه بأحوالهم الظاهرة وأمورهم الباطنة في ذلك اليوم الذي يُبعث فيه من في القبور ، ويُحصَّل ما في الصدور .

خامساً : التنغيم

التنغيم : " هو ارتفاع الصوت وانخفاضه مراعاة للظروف المؤدى فيها " [٩٧] ، وهو "جملة من العادات الأدائية المناسبة للمواقف المختلفة من تعجب ، وسخرية ، واستفهام ، وتأكيد ، وتحذير ، وغير ذلك من المواقف الانفعالية " [٩٨] التي تحدث نتيجة التغيرات الطارئة علي درجة

---

٩٧ أبحاث في علم أصوات اللغة العربية ، د أحمد عبد التواب ، ص ١٨٦ وما بعدها ، دار السعادة ، مصر ١٩٩١م

٩٨ علم الأصوات ، برتيل مالميرج ، تعريب : عبد الصبور شاهين ، ص ٢٠٩ ، مكتبة الشباب القاهرة ١٩٩٦م

الصوت مراعاة للمقام الذي تصدح في أرجائه وتترنم في أنحائه ، والتنغيم ممارسة صوتية لها أهمية فنية وروعة بيانية تسهم في توضيح المعني وتمثيله فى قلب السامع ، فتعمل على تقديمه في هيئة تصويرية ، وطريقة تكثيفية ، وقد اعتمد العرب عليه في طريقتهم الأدائية ، ووسيلتهم التعبيرية ، فكان ضرباً من ضروبهم ومسلكاً من مسالكهم ، يفرقون به بين المعاني وأغراضها ، وصنوف الأحاديث ودروبها ، فالكلمة قد تحمل معنىً دلالياً محدداً ، فإذا ما تنوع أداؤها ، اختلف معناها ، وتبدل مغزاها بفضل القيمة الصوتية ، والخصيصة الدلالية التي يحملها طابع التنغيم .

والتنغيم أحد روافد الإيقاع القرآني التي تعمل على تكثيف المعنى وتمثيله في قلب السامع وتقديمه فى نغمة صوتية ، ودرجة إيقاعية ، وله وظيفة إيحائية كبرى تعمل على الوصول إلى مضامين التراكيب ومدلولاتها ، فالطابع التنغيمي في الجملة المؤكدة يختلف في أدائه عن الجملة المرسلة ، والمنهج التوقيعي في الجملة الإخبارية يختلف في إلقائه عن الجملة الإنشائية ؛ لأن لكل منهما درجة صوتية ، وطريقة أدائية تختلف فى كل واحدة منهما عن الأخرى ، هذه الدلالات لا يمكن الوصول إلى مغزاها ومعرفة مبتغاها إلا من خلال التلوينات الصوتية والتكوينات التنغيمية للجملة القرآنية ، كما يحقق التنغيم وظيفة نفسية تعمل على تمثيل المواقف الانفعالية التي تعتري السامع ، فتجسد ما

يعتريه من معانٍ روحية وقيم وجدانية كالفرح والحزن ، والارتياح والغضب ، والوعد ووعيد ، والاستبشار والتهديد ، إلي غير ذلك من المعاني الوجدانية والدلالات المعنوية .

وإذا كان التنغيم أحد ضرورات التعبير ووسائل التصوير عند العرب قديماً ؛ فهو أبرز دعائم اللفظ القرآني والتعبير السماوي الذي يهدف إلى تمثيل المعنى في قلب السامع ، وتقديمه في هيئة تصويرية ، وطبيعة تكثيفية ، لأغراضه المتعددة ومناهجه المتنوعة .

ومن الأمثلة القرآنية التي يتعاظم فيها دور التنغيم ، قدرته على تمثيل ما يحمله اللفظ القرآني من معان نفسية وصور إيقاعية ، وما يتقلده من توازن صوتي ، وتأثير سمعي ، قوله تعالي : " هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ " [٩٩] فالصوت في فواصل هذه الآيات ، يختلف في طريقته الأدائية تبعاً لتغيّر علامته الإعرابية ، فإذا ما تعرض للتطور والانحراف ، تسقط هذه الفواصل الدالة على الإعراب والبناء ، وتُجرّد حينئذ من علامتها الإعرابية ، فإذا ما قرأنا نهايات تلك الآيات بسكون تاء " الْغَاشِيَةِ " بدلاً من جرها علي الإضافة ، و " خَاشِعَة " بدلاً من رفعها علي الخبر ، و " نَاصِبَة " بدلاً من رفعها هي الأخرى علي

---

٩٩ سورة الغاشية ، الآية : ١- ٥

الخبر و" حَامِيَةٌ " بدلاً من نصبها علي الصفة ، و " آنِيَةٍ " بدلاً من جرها علي الصفة ، أحرز التسكين تنغيماً صوتياً وتوازناً إيقاعياً ، يشنف الآذان ، ويحرك القلوب والأذهان ، بنمير جرسه الرائق ، وفرات إيقاعه النامق.

وإذا كان التنغيم له دور فاعل فى صحة التراكيب خارجياً ، فإن الإعراب هو الباعث عن سلامة التراكيب داخلياً ؛ لاسيما وأنّ " التنغيم فى الكلام يقوم بوظيفة الترقيم فى الكتابة ، غير أن التنغيم أوضح من الترقيم فى الدلالة على المعنى الوظيفي للجملة ، وربما كان ذلك لأنّ ما يستعمله التنغيم من نغمات أكثر مما يستعمله الترقيم من علامات "[١٠٠] ، إضافة إلى أن التنغيم يأتي مواكباً للحديث ، فيثير مكامن النفس ، ويؤجج مشاعرها لمتابعة المعنى وملاحظة ما يصحب المتحدث من هيئات انفعالية تنتابه عند الحديث كالفرح والحزن ، أو الغضب والرضا ، إلى غير ذلك من المعاني النفسية والصور الوجدانية .

ومن الصور القرآنية الأخرى التي يحقق التنغيم فيها دوراً إيقاعياً ، ونغماً صوتياً ، يسهم فى إبراز الدلالة المعنوية ، وترجمة المواقف الانفعالية ، قوله تعالى : قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاء أَفَلَا تَسْمَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن

---

١٠٠ علم الأصوات ، د: كمال بشر ، ٥٤٧ ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ٢٠٠٠ م

جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّـهِ يَـأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ "[١٠١]، فمد الصوت فى الاستفهام المتكرر في هذه الآيات ، وما يتبعه من تغيير فى النغم يشعر السامع بوحدانيـة الله وقدرته فى إدارة هذا الكون ، ولا يستقيم المعنى بحـال لـو نطقـت الجملة على الخبرية ؛ لأن الوظيفة التنغيمية للجملة الاستفهامية تختلف فى طريقة أدائها وطبيعة نطقها عن الطابع التنغيمي للجملة الخبريـة ، فلكل واحدة منهما نغمة محددة ، ومنظومـة معينـة ، والإخـلال بهـذه الوظائف إهدار للغاية الدلالية ، وتضييع للقوة الإبلاغية التـي ينشـدها القرآن الكريم ، وهذا دليل على ما يحمله التنغيم مـن طاقـة صـوتية وانفعالات وجدانية ، تأخذ بيد السامع للوقـوف علـى تمثيـل المعنـى وتقديمه فى هيئة حسية ودلالة تصويرية.

وينبغي التأكيد على أن عملية التنغيم لا تتوقف فاعليتها عند كونها ظاهرة صوتية تقذف الارتياح فى النفس والاطمئنان في الروح لحلاوة جرسها ، وجمال إيقاعها ؛ وإنما بما تؤديه من انسجام فنيّ وتلاحم إبداعي بين اللفظ والمعنى ، ومدى تأثير الجملة التنغيمية فى أعماق النفس الإنسانية ومشاعرها الوجدانية ، وقدرتها على استدعاء الصور الحسيّة والمعاني الذهنيّة فتكون ماثلة في الذهن ، مشرقة فى القلب ، حاضرة في الوعي ؛ ويرجع ذلك إلى أن التنغيم يمنح المعنى المُنغّم

---

١٠١ سورة القصص ، الآية : ٧١ - ٧٢

تمييزاً وتوضيحاً دون غيره من المعاني الأسلوبية الأخرى ، التي يفتقر اللفظ فيها إلى ظاهرة التنغيم ؛ لأن اللفظ حين يطرق السمع بنغمه الرائق وجرسه السائغ ، يزيد المعنى إشراقاً فى النفس وتألقاً فى الروح ، وبهذا يكون التنغيم هو الركن الأساسي الذي تقوم عليه فنية الإيقاع وروعة الإمتاع التي ينفرد بها اللفظ القرآني والتعبير السماوي ، فضلاً عن ذلك فإن التنغيم هو المفتاح السحري الذي ينشر النور على أواصر المعنى وروابط الفحوى التي يحملها أسلوب القرآن ، وقدرته على الإثارة النفسية والمتعة الروحية .

ـ ومن الصور القرآنية الأخرى التي يشكل التنغيم فيها دوراً فاعلاً في توفير مساحة صوتية وطاقة تنغيمية ، يتماوج فيها الصوت صعوداً وهبوطاً قوله تعالى : " إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا "[١٠٢] ، فكل كلمة فى هذه الآية تحمل أوصافاً محددة ونماذج مبينة منها ما يخص الذكور ومنها ما يخص الإناث ، وقد حافظ النمط القرآني على المواءمة الصوتية والملاءمة الصرفية بين هذه الصفات ، فجاء بصوت الياء ممدوداً إلى الأسفل في صفات الرجال

---

١٠٢ سورة الأحزاب ، الآية : ٣٥

، وجاء بصوت الألف ممدوداً إلي الأعلى فى صفات النساء ، وظلت النغمة الصوتية والطريقة التنغيمية متوازنة صعوداً وهبوطاً بين هذين الصنفين ، تحاكي باسترسالها وطريقة أدائها الحالة النفسية التي تثيرها في نفس السامع ؛ ليكون من هؤلاء الصنف من الناس ، حتى يفوز بمغفرة ربه وعظيم أجره .

وتبدو فاعلية التنغيم ماثلة فيما ينشره فى أواصر المعنى من وظيفة انفعالية وأخرى دلالية ، فأما الانفعالية : فتتمثل فى أن التنغيم وسيلة صوتية تمنح المعنى عوامل توضيحية وصوراً تفسيرية ، تجسد تموّجاته النغمية فى دلالات نفسية ، تجعل المعنى أكثر مثولاً فى النفس ، وتصويراً فى الوعي .

أما الوظيفة الدلالية : التي تضطلع بها ظاهرة التنغيم ، فتتمثل في أن التنغيم وسيلة لفهم دلالات التراكيب وفكّ شفراتها ، وحلّ ألغازها التي لا يمكن الوصول إلى بغيتها أو توضيح غايتها إلا عن طريق الهيكل التنغيمي للجملة ، وهذا يختلف من جملة إلى أخرى ، فالجملة الخبرية تختلف فى إلقائها وطريقة تنغيمها عن الاستفهامية ، أو التعجبية ، أو غيرها من الأساليب الإنشائية ؛ لأن لكل جملة طريقة صوتية معينة ، ووسيلة تنغيمية محددة ، تتجاوب ما بين الصعود تارة والهبوط تارة أخرى ، إلى غير ذلك من القوالب التنغيمية والأساليب الصوتية.

الجناس

يشكل الجناس رافداً مهماً من روافد الإيقاع فى الخطاب القرآني ونسقه التعبيري ، فهو أحد مصادره الصوتية ، ومنابعه التنغيمية التي تمنح الكلام جرساً بديعاً وإيقاعاً فريداً ، فيكون أسلوبه أشدّ أسراً ، ولغته أشيّد مبنىً ، ومعناه أكثر إشراقاً ، وأوفر بهاءً ، حتى يبلغ بالحديث أعمق التأثير فى النفس البشرية ، وأبلغ التعبير فى مشاعرها الوجدانية ، وهو بنية صوتية وروعة أسلوبية ، لها بالغ التأثير فى المسار الإيقاعي والنسق التعبيري للجملة القرآنية ، وتبدو فاعلية الجناس فى اللفظ القرآني فيما تحدثه من تناغم جرسيّ وترديد صوتيّ تشنف له الآذان ، وتخشع له القلوب والأبدان .

وهو انسجام لفظي يُثري الدلالة ، ويُجدد الصياغة ، ويمنحها تأثيراً وجدانياً بفضل الموازنة الصوتية الناجمة عن اتفاق الكلمة صوتياً وافتراقها دلالياً ، ما يحفّز خاطر المتلقي حتى يستشرف وحيها الهامس ، ويترقب جرسها النابس ، وينبه مشاعره لقيمها الجمالية ومنافذها النفسية التي تحدث تأثيراً رمزياً " عن طريق الربط السببي بين المعنى والمثير ، بحيث يصبح الصوت مثيراً للدلالة " [١٠٣] ، ومنبهاً

---

١٠٣ بلاغة الخطاب وعلم النص ، د: صلاح فضل ٢١٠ ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، أغسطس ١٩٩٢.

لمضامينها الجزئية ، ومعانيها الفرعية التي تـربط الألفـاظ ببعضـها ، وتجمع الدوال بمدلولاتها .

ومن فضيلة الخطاب القرآني أنه استوعب جميع مظـاهر الجنـاس الشكلية ، واستخدم جميع أنماطه التعبيرية ، فحقق بها إيقاعـاً بـديعاً ، تناسب أصداؤه أصواته ، ويجسد إيقاعه انفعالاته .

ومن النماذج القرآنية التي استعمل القرآن أصواتها فيمـا يناسـب أصداءها ، واستوحى دلالاتها من جنس ألفاظها قوله تعـالى : " وُجُـوهٌ يَوْمَئِذٍ نّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ " [١٠٤] ، فالجناس في الفاصلة بين " نّاضِرَةٌ " و "نَاظِرَةٌ " يكسب الكلام روعة فنية ونغمة إيقاعية ، بفضل تجانسـها الصوتي ، وتقاربها الدلاليّ الناجم من اتفاق الكلمتين صوتياً وافتراقهما دلالياً ، وهذا يجعل المعنى فى هيئة تكثيفية وروعة بيانية يتساوق فيهـا اللفظ مع المعنى شكلياً ، ويختلف معه دلالياً ، ما يـؤدي إلـى تصـوير الفرحة الغامرة والبهجة العامرة التي تزخر بها النفوس المؤمنـة عنـد رؤية بارئها ومشاهدة خالقها ، وتبدو فاعلية الجنـاس فـى التـوازي الصوتي والتناغم الإيقاعي بين " نّاضِرَةٌ " بمعنى الحسـنة المشـرقة ، والجميلة المتألقة ، و "نَاظِرَةٌ " بمعنى الرائية المبصرة جمـال ربهـا ، وحسن وليّها ، وما بينهما من ارتباط دلاليّ وانسجام صوتيّ ، لا يقـف

---

[١٠٤] سورة القيامة ، الآية ٢٢ -٢٣

أثره عند الوصف الخارجيّ ، وإنما يتعداه إلى إبراز ما يعتري النفوس من بهجة روحية وسعادة أبدية ، تُلقي بظلال نفسية ومروج نغمية على إبداع ألفاظ القرآن الكريم ، فالتشابه الصوتي بين اللفظين ، يوحي بالمحاكاة الأولية بين الأصوات وصفاتها ، والألفاظ ومدلولاتها ؛ لأن الشعور بالسعادة النفسية والغبطة القلبية ، تعكسه ملامح الوجه ونظرات العين ، فالنضارة فى الأصل صورة استعارية استحالها النغم القرآني من طراوة الزروع فى حقولها ونداوة الورود فى أريجها ، إلى سعادة القلوب عند رؤية ربّها ، وقد أتت هذه الاستعارة متناسبة فى جرسها ، متناغمة فى إيقاعها ، يربط الجناس بين مكوناتها ، ويُؤَطِّرُ العلاقة بين أطرافها ، فالسعادة النفسية صفة معنوية تظل حبيسة الروح كامنة القلب ما لم يُقيّض لها روادف ولوازم تحلُّ في إهابها ، وتتجسد في إطارها ، ومتعة النفوس وأنسها " موقوف على أن تخرجها من خفيّ إلى جليّ ، وتأتيها بصريح بعد مكنيّ ، وأن تردها فى الشئ تعلمها إياه إلى شئ آخر هي به أعلم ، وثقتها به فى المعرفة أحكم ، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس ، وعمّا يُعلم بالفكر إلى ما يُعلم بالاضطرار والطبع ؛ لأن العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع ... يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر فى القوة والاستحكام وبلوغ الثقة فيه غاية التمام" [١٠٥]

---

١٠٥ أسرار البلاغة فى علم البيان ، للإمام عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق رشيد رضا

ومن الصور الإيقاعية التي يتعانق فيها الجناس مع الفاصلة القرآنية ، فتعمل على توفير موازاة صوتية ، ونغمة جرسية تسهم فى استجلاء المعنى وتوضيحه ، وتمثيل غاياته وتصويره ، قوله تعالى : " إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ " [١٠٦] ، فأول ما يلحظه السامع فى هذه الآيات ، هو الترصيع الصوتي الناجم عن المجانسة الصوتية بين " لَشَهِيدٌ " و " لَشَدِيدٌ " ، والفرق بين اللفظين المتجانسين يقع فى صوت واحد هو " الهاء " و " الدال " . كما أنّ توزيع الأصوات على نحو متناغم تتماثل فيه " الصوامت " و " الصوائت " يمنح البنية الإيقاعية نغمة موسيقية ، وروعة تعبيرية ، تسهم فى تقديم المعنى في هيئة حسيّة وطريقة تمثيلية ، فيقف بنفسه على نعم ربّه ، ثم يجحد بها ويكفر بصورها ، وهذا يتجانس بدوره مع فطرته الإنسانية وطبيعته البشرية التي تهوى حب المال ، وكثرة العيال ، واجتماع هذين اللفظين على هذا النحو يرسم صورة تعبيرية للحالة الوجدانية التي تعترى بني الإنسان كافة – إلا من عصمه الله ــ وما تتصف به من سلوك عجيب ، ينشأ من التناقض المترائي بين صورته النفسية وطريقته السلوكية فى إيثار المال على نفسه ، وتمكّنه فى قلبه ، فهو متهالك فى طلبه ، مُجِدٌ فى أمره ، يأكل وحده ، ويمنع رفده ، ويكفر ربه .

، ص ١٠٥ .

١٠٦ سورة العاديات ، الآية ٦-٨.

ومن العوامل الفنية المؤثرة في إيقاع التجانس اللفظيّ والتناغم الجرسيّ ، وقوع التجانس في عدد من الفواصل القرآنية علي نحو قوله تعالى : "كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ " ١٠٧ ، فالمجانسة اللفظية بين "رَاقٍ " و " ٱلْفِرَاقُ " و "بِٱلسَّاقِ " و "ٱلْمَسَاقُ " من أهم مكونات النَّظْم القرآني ، ونسقه التعبيري التي تمنح ألفاظ القرآن الكريم سمتاً لغوياً معجزاً ، وإيقاعاً صوتياً مؤثراً ، وخصيصة مهمة في تشكيله الفنيّ ، وجماله الصوتيّ ، تسهم في توفير الملاءمة الموضوعية ، والمواءمة المعنوية التي تؤدى إلى تناغم الحروف في ألفاظها ، و تجانس المفردات في سياقها ، و تعادل الوحدات في مقاطعها ، فالتشكيل الصوتي المتوازن بين الفعل " رَاقٍ " ، والمقطع الأخير من كلمة " ٱلْفِرَاقُ "، والمجانسة اللفظية التي بين " ٱلسَّاقُ " و"ٱلْمَسَاقُ " ، وتواتر الفاصلة على حرف "القاف" يجعل المفردات القرآنية متوازنة النبرات ، عذبة النغمات ، تسابق صورتها الذهنية دلالتها السمعية ، تشرئب الأعناق إلى جرسها الرائق ، وتتوقع الأسماع إيقاعها الناقع .

---

[١٠٧] سورة القيامة ، الآية ٢٦-٣٠.

كما تتنوع عناصر التوازن الفني بين المعنى والمبنى بفضل الملاءمة الصوتية التي تضطلع بها فنية التجنيس ، فهو – قبل أن يكون لوناً من ألوان البديع يُعنى بمقامات التزيين والتحسين – ظاهرة تنغيمية وروعة إيقاعية تتحاور فيها الأصوات والدلالات ، وتتلاحى فيها مضامين الخطابات ، وكلما كان استخدامه متوازناً مع مقتضيات الخطاب ومقامات السياق كان " من ألطف مجاري الكلام ومن محاسن مداخله ، وهو من الكلام كالغرّة في وجه الفرس " [١٠٨]

فهذا التناسق الإبداعي والتناغم الإيقاعي الذي تحويه مفردات هذه الآيات بفضل التجانس التركيبي الذي يشيعه صوت " المد " مع " القاف " يأتي فى سياقه القرآني غير متكلف ولا متعنت قد أكسب الكلام تلاؤماً صوتياً وانسجاماً تعبيرياً تأنس القلوب بوقعه الرتيب ، وتأليفه العجيب ، وهذا " التلاؤم ليس بمنأى عن حسن البيان بل لا بد وأن ينضاف إليه حسن البيان في صحة برهان "[١٠٩]

ومن هنا نري أن بنية الأصوات التي تتشكل منها آيات القرآن الكريم أتت متناسقة فى موضعها متوائمة في موقعها ، لا يعتري

---

١٠٨ الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز : يحيى بن حمزة العلوي اليمني ، ص ٣٣٥ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٢ .

١٠٩ الرماني ثلاث رسائل ص ٨٧ – ٨٨ .

مخارجها تقارب شديد ، أو تباين بعيد ، وإنما مناسبة صوتية تشعر السامع بوحدات إيقاعية تُطرب الآذان ، وترتاح لها النفوس والأبدان .

نخلص من هذا إلى أن الجناس القرآني تقنية صوتية وروعة فنية لها دور بالغ التأثير في المسار الإيقاعي للجملة القرآنية ، فتعمل على توفير موسيقية صوتية ونغمة إيقاعية ، تخشع الأصوات لجرسها ، وتخنع الأبدان لأصدائها قبل أن تعيّ مدلولها أو تقف على مضامينها . وهذا بفضل نغمته الفنية وروعته الأسلوبية التي تنفرد اللفظة القرآنية بها ، وما تحويه من طابع جمالي له وظيفة دينية وغاية دلالية تقبع فى حنايا النفس الإنسانية ومشاعرها الوجدانية ، فتستطيع أن تحفظ آياته ، وتشعّ فى روحها غاياته ، بفضل قيمه الصوتية ، وتراكيبه الفنية التي يتساوق فيها اللحن على التنوع ، والترقب ، والترجيع ، والتوقيع ، حتى يكون اللفظ دالاً على المعنى باستدعائه وتصوير غاياته ، فى محاكاة صوتية ، يحرص الخطاب القرآني على توظيفها ، وحسن تمثيلها .

.....

نتائج البحث

ـ احتل الإيقاع منزلة سامية ودرجة عالية في مستويات الأداء القرآنـــي ونسقه البياني ، فلم يتوقف دوره على الجمال الصوتي والنغم الإيقاعي ، وإنما كان ضرورة فنية ومسحة جمالية لا تقتصر علي النظـــام الشـــكلي والإطار اللفظي ، بل كان ضرورة من ضرورات النص التشريعي حتـــى يجعل النفوس له مصروفة ، والآذان به مشغوفة .

ـ تتميز المفردة القرآنية بقدرات صوتية هائلة وطاقات إيقاعية طائلة ، تعمل على استجلاء الموقف النفسي ، وتمثيل الواقع الشـــعوري الـــذي يعتري الإنسان ، فشكّل الإيقاع فيها عنصراً بارزاً من مكونـــات الـــنَّظْم القرآني ، وخصيصة مهمة في تشكيله البياني وغرضـــه الديني ، فأتـــت ألفاظه فى تلاؤم بديع وانسجام عجيب ، تتعدد فى ضوئه طرائق التعبيـــر ومناهج التصوير.

ـ يحفل الإيقاع القرآني بكثير من الصور التنغيمية التـــي تعمـــل علـــى تحقيق التوازن الصوتي والتناغم الإيقاعي ، الذي يعمل علـــى وضـــوح المعنى وإبراز غايته وتكثيف دلالته ؛ ليكون أكثر إشراقا فى العواطـــف الإنسانية والمواقف الشعورية الـــتي تعتمل فى وعـــي الســـامع وفكـــره وعقله .

ـ الإيقاع القرآني قيمة تعبيرية كبرى تتجلي في انسجام بنيته الصوتية ، وتلوين مقاطعه اللفظية بوحدات جرسية وصور نغمية قادرة علي تصوير المعاني وتمثيلها في هيئة متجددة حيّة ومشاهدة مرئية .

ـ تبدو فاعلية الإيقاع القرآني وإعجازه اللغوي في انتقاء مفردات مصورة بجرسها ، تسهم في تلوين الخطاب بمقامات السياق ، ومتطلبات الحال ، فتتدفق ألفاظه في انسيابية ، وتتواتر جمله في أريحية .

ـ تتعدد روافد الإيقاع القرآنيّ والنغم الجرسيّ الذي تثيره وحداته اللغوية وتراكيبه الأسلوبية ، وتتواتر جميعها علي توفير مساحة من التقابل الصوتيّ ، والتناسق الفنيّ ، الذي ينبعث من تآلف الحروف في مفرداتها ، وتناسق الكلمات في جملها ، وتقارب الأوزان في مبانيها ، وتناسب الوجوه في معانيها ، إلي غير ذلك من المحسنات الصوتية والمعنوية كالترديد ، والسجع ، والجناس ، والتكرار ، والمشاكلة ، والطباق ، والمقابلة ، ورد الأعجاز علي الصدور ، والجمع مع التقسيم ، وتشابه الأطراف ، والمجاورة ، والذكر والحذف ، والتقديم والتأخير ، والالتفات ، إلي غير ذلك من الصور التي تعمل علي توفير ترديد إيقاعي ونغم جرسي يسهم في التناسق الإبداعي للنصّ القرآني .

ـ تتميز المفردة القرآنية بخصائص إيقاعية وملامح جرسية تعمل علي تناغم الحروف في مفرداتها وانسجامها في جملها ، فتكون منتظمة الحركات ، متسقة النبرات ، تثير بوقعها العواطف والانفعالات التي

تسري في وجدان السامع ، ومشاعر المتلقي ، وتتركز هذه الموسيقية في تناسق الأصوات في مفرداتها ، وتجانس الكلمات في جملها ، وإيقاع الجمل في تراكيبها .

ـ إذا كان كل حرف في القرآن الكريم له جرس محدد وإيقاع معين يؤدى به دوراً منوطاً في النسق الربّانيّ والتشريع السماويّ ، تبجيلاً لاصطفائه ، وتوقيراً لاجتنائه ، فإن للكلمة القرآنية أسراراً بلاغية ، وفرائد بيانية ، تتمثل في دقّة وضعها ، وروعة انسجامها ، وأصدق برهانها ، وأشدّ نهوضها ، فلا تقوم مفردة مقامها ولا تستبدل بكلمة أخرى غيرها ، فتكون معجزة بإيثارها ، مصورة بجرسها وإيقاعها ، مبينة بحركاتها وسكناتها .

ـ يعدُّ التكرار واحداً من البنى التركيبية والنماذج الأسلوبية التي تحتل منزلة عالية ودرجة سامية في أولى خطوات الدرس الأسلوبي والخطاب التعبيري ، وهو روعة فنية وقيمة تعبيرية توائم مقتضيات النفس الإنسانية ومشاعرها الوجدانية ؛ وهو أحد وسائل الانسجام اللفظي والإعجاز البلاغي في النص القرآني ، إذ به ينبه المتثاقل ، وينذر المتكاسل ، وهو من النماذج الأسلوبية التي تمد النسق القرآني بروافد جرسيّة وطرق إيقاعية بفضل ما يحويه من شذور منتظمة وألفاظ متسقة ، يظهر البحث في مكنونها أزكى منتظر ، ويبين مضمرها عن أجلّ مختبر.

ـ الفاصلة أهم روافد الإيقاع القرآني والـنغم الجرسـيّ التـي تحدثـه مفرداته اللغوية وتراكيبه الأسلوبية ، فتخلق جواً من التوازن الصوتي ، والتناغم الإيقاعي ، والتناسق الجمالي الذي تسري أوصاله فى النسـق القرآني والتعبير الربّاني ، والذي تستمد فى رحابه فاعليتها من قـدرتها الفنية وروعتها البيانية ، فأتت متوازنة مع الفطـرة الإنسـانية التـي تتجاوب مع التجانس النغمي والتواتر الإيقاعي .

ـ التنغيم أحد روافد الإيقاع القرآني التي تعمل علـى تكثيـف المعنـي وتمثيله في قلب السامع وتقديمه فى نغمة صوتية ، ودرجة إيقاعيـة ، وللتنغيم وظيفة دلالية تساعد على الوصول إلـى مضـامين التراكيـب ومدلولاتها ، فالطابع التنغيمي في الجملة المؤكدة يختلف في أدائه عـن الجملة المرسلة ، والمنهج التوقيعي في الجملة الإخبارية يختلـف فـي إلقائه عن الجملة الإنشائية ؛ لأن لكل منهما درجة صـوتية ، وطريقـة أدائية تختلف فى كل واحدة منهما عن الأخرى ، هذه الدلالات لا يمكـن الوصول إلي مغزاها ومعرفة مبتغاها إلا من خلال التلوينـات الصـوتية والتكوينات التنغيمية للجملة القرآنية .

ـ يشكل الجناس رافداً مهما من روافد الإيقاع القرآني ، لما يحويه من انسجام لفظي وتواتر صوتي يُثري الدلالة ، ويُجدد الصياغة ، ويمنحها تأثيراً وجدانياً بفضل الموازنة الصوتية الناجمة من اتفاق الكلمة صوتياً وافتراقها دلالياً ، مما يحفّز خاطر المتلقي حـتى يستشرف وحيها

الهامس ، ويترقب جرسها النابس ، وينبه مشاعره لقيمها الجمالية ومنافذها النفسية التي تحدث تأثيراً رمزياً فاعلاً في سياق المفردة القرآنية .

نتائج البحث

ـ احتل الإيقاع منزلة سامية ودرجة عالية في مستويات الأداء القرآنـــي ونسقه البياني ، فلم يتوقف دوره على الجمال الصوتي والنغم الإيقاعي ، وإنما كان ضرورة فنية ومسحة جمالية لا تقتصر علي النظـــام الشـــكلي والإطار اللفظي ، بل كان ضرورة من ضرورات النص التشريعي حـــتى يجعل النفوس له مصروفة ، والآذان به مشغوفة .

ـ تتميز المفردة القرآنية بقدرات صوتية هائلة وطاقات إيقاعية طائلة ، تعمل على استجلاء الموقف النفسي ، وتمثيل الواقع الشـــعوري الـــذي يعتري الإنسان ، فشكّل الإيقاع فيها عنصراً بارزاً من مكونـــات الـــنَّظْم القرآني ، وخصيصة مهمة في تشكيله البياني وغرضـــه الديني ، فأتـــت ألفاظه فى تلاؤم بديع وانسجام عجيب ، تتعدد فى ضوئه طرائق التعبيـــر ومناهج التصوير.

ـ يحفل الإيقاع القرآني بكثير من الصور التنغيمية التـــي تعمـــل علـــى تحقيق التوازن الصوتي والتناغم الإيقاعي ، الذي يعمل علـــى وضـــوح المعنى وإبراز غايته وتكثيف دلالته ؛ ليكون أكثر إشراقا فى العواطـــف الإنسانية والمواقف الشعورية التـــي تعتمل فى وعـــي الســـامع وفكـــره وعقله .

ـ الإيقاع القرآني قيمة تعبيرية كبرى تتجلي في انسجام بنيته الصوتية ، وتلوين مقاطعه اللفظية بوحدات جرسية وصور نغمية قادرة علي تصوير المعاني وتمثيلها في هيئة متجددة حيّة ومشاهدة مرئية .

ـ تبدو فاعلية الإيقاع القرآني وإعجازه اللغوي في انتقاء مفردات مصورة بجرسها ، تسهم في تلوين الخطاب بمقامات السياق ، ومتطلبات الحال ، فتتدفق ألفاظه في انسيابية ، وتتواتر جمله في أريحية .

ـ تتعدد روافد الإيقاع القرآنيّ والنغم الجرسيّ الذي تثيره وحداته اللغوية وتراكيبه الأسلوبية ، وتتواتر جميعها علي توفير مساحة من التقابل الصوتيّ ، والتناسق الفنيّ ، الذي ينبعث من تآلف الحروف في مفرداتها ، وتناسق الكلمات في جملها ، وتقارب الأوزان في مبانيها ، وتناسب الوجوه في معانيها ، إلي غير ذلك من المحسنات الصوتية والمعنوية كالترديد ، والسجع ، والجناس ، والتكرار ، والمشاكلة ، والطباق ، والمقابلة ، ورد الأعجاز علي الصدور ، والجمع مع التقسيم ، وتشابه الأطراف ، والمجاورة ، والذكر والحذف ، والتقديم والتأخير ، والالتفات ، إلي غير ذلك من الصور التي تعمل علي توفير ترديد إيقاعي ونغم جرسي يسهم في التناسق الإبداعي للنصّ القرآني .

ـ تتميز المفردة القرآنية بخصائص إيقاعية وملامح جرسية تعمل علي تناغم الحروف في مفرداتها وانسجامها في جملها ، فتكون منتظمة الحركات ، متسقة النبرات ، تثير بوقعها العواطف والانفعالات التي

تسري في وجدان السامع ، ومشاعر المتلقي ، وتتركز هذه الموسيقية في تناسق الأصوات في مفرداتها ، وتجانس الكلمات في جملها ، وإيقاع الجمل في تراكيبها .

- إذا كان كل حرف في القرآن الكريم له جرس محدد وإيقاع معين يؤدى به دوراً منوطاً في النسق الربّانيّ والتشريع السماويّ ، تبجيلاً لاصطفائه ، وتوقيراً لاجتنائه ، فإن للكلمة القرآنية أسراراً بلاغية ، وفرائد بيانية ، تتمثل في دقّة وضعها ، وروعة انسجامها ، وأصدق برهانها ، وأشدّ نهوضها ، فلا تقوم مفردة مقامها ولا تستبدل بكلمة أخرى غيرها ، فتكون معجزة بإيثارها ، مصورة بجرسها وإيقاعها ، مبينة بحركاتها وسكناتها .

ـ يعدُّ التكرار واحداً من البنى التركيبية والنماذج الأسلوبية التي تحتل منزلة عالية ودرجة سامية في أولى خطوات الدرس الأسلوبي والخطاب التعبيري ، وهو روعة فنية وقيمة تعبيرية توائم مقتضيات النفس الإنسانية ومشاعرها الوجدانية ؛ وهو أحد وسائل الانسجام اللفظي والإعجاز البلاغي في النص القرآني ، إذ به ينبه المتثاقل ، وينذر المتكاسل ، وهو من النماذج الأسلوبية التي تمد النسق القرآني بروافد جرسيّة وطرق إيقاعية بفضل ما يحويه من شذور منتظمة وألفاظ متسقة ، يظهر البحث في مكنونها أزكى منتظر ، ويبين مضمرها عن أجلّ مختبر.

ـ الفاصلة أهم روافد الإيقاع القرآني والـنغم الجرسـيّ التـي تحدثـه مفرداته اللغوية وتراكيبه الأسلوبية ، فتخلق جواً من التوازن الصوتي ، والتناغم الإيقاعي ، والتناسق الجمالي الذي تسري أوصاله فى النسـق القرآني والتعبير الربّاني ، والذي تستمد فى رحابه فاعليتها من قـدرتها الفنية وروعتها البيانية ، فأتت متوازنة مع الفطـرة الإنسـانية التـي تتجاوب مع التجانس النغمي والتواتر الإيقاعي .

ـ التنغيم أحد روافد الإيقاع القرآني التي تعمل علـى تكثيـف المعنـي وتمثيله في قلب السامع وتقديمه فى نغمة صوتية ، ودرجة إيقاعيـة ، وللتنغيم وظيفة دلالية تساعد على الوصول إلـى مضـامين التراكيـب ومدلولاتها ، فالطابع التنغيمي في الجملة المؤكدة يختلف في أدائه عـن الجملة المرسلة ، والمنهج التوقيعي في الجملة الإخبارية يختلـف فـي إلقائه عن الجملة الإنشائية ؛ لأن لكل منهما درجة صـوتية ، وطريقـة أدائية تختلف فى كل واحدة منهما عن الأخرى ، هذه الدلالات لا يمكـن الوصول إلي مغزاها ومعرفة مبتغاها إلا من خلال التلوينـات الصـوتية والتكوينات التنغيمية للجملة القرآنية .

ـ يشكل الجناس رافداً مهما من روافد الإيقاع القرآني ، لما يحويه من انسجام لفظي وتواتر صوتي يُثري الدلالة ، ويُجدد الصياغة ، ويمنحها تأثيراً وجدانياً بفضل الموازنة الصوتية الناجمة من اتفاق الكلمة صوتياً

وافتراقها دلالياً ، مما يحـــفّز خاطر المتلقي حتى يستشرف وحيها الهامس ، ويترقب جرسها النابس ، وينبه مشاعره لقيمها الجمالية ومنافذها النفسية التي تحدث تأثيراً رمزياً فاعلاً في سياق المفردة القرآنية .